المنهج الصوفي عند الحارث المحاسبي [ت ٢٤٣ هـ]

(دراسة تحليلية)

د/ خالد عبد الموجود مصطفي محمد دويدار
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد –كلية أصول الدين بالقاهرة

ملخص البحث

المنهج الصوفي عند الحارث المحاسبي [ت ٢٤٣ هـ] (دراسة تحليلية)

د/خالد عبد الموجود مصطفي محمد دويدار
جامعة الازهر–كلية اصول الدين – قسم العقيدة والفلسفة – القاهرة
ايميل: Khaled_dor@azhar.edu.eg

الملخص:

نحاول في هذا البحث ان نكشف النقاب ونزيل بعض ما أثير حول شخصية من كبار الصوفية وهو الشيخ الحارث بن أسد المحاسبي صاحب التصانيف الكثيرة من خلال المباحث الآتية:

- المبحث الأول: حول الحارث المحاسبي حياته ونشأته.
- المبحث الثاني: مع الحارث المحاسبي في كتبه وأقواله.
- المبحث الثالث: بين الحارث المحاسبي وأحمل بن حنبل (ت ٢٤١هـ).
- المبحث الرابع: منهج الحارث المحاسبي في التصوف.
- المبحث الخامس: الحارث المحاسبي بين المادحين والقادحين.

ومن خلال هذه المباحث يمكن أن نقول: إن الإمام الحارث بن أسد المحاسبي، كان زاهداً صوفياً فقيهاً محدثاً أصولياً متكلماً على هدى من السنة والبصيرة السليمة، كما كان مرشداً للجماهير يسمع منهم ويجيب بما ينفعهم، وقل من تجمعت له هذه المواهب في ذلك العصر الذي عاش فيه، وأن ما أثير حول شخصيته من شبهات لا تقف أمام النقد العلمي القويم.

الكلمات المفتاحية: المحاسبي، المنهج، التصوف، المادحين، القادحين.

Research Summary

The Sufi Approach of Al-Harith Al-Muhasibi [d. ٢٤٣ AH] (An Analytical Study)

Dr: Khaled Abdel Mawgoud Mustafa Mohamed Dewidar
Al-Azhar University - Faculty of Fundamentals of Religion - Department of Belief and Philosophy - Cairo
Email: Khaled_dor@azhar.edu.eg

Summary:

We try in this research to unveil and remove some of what was raised about the figure of senior Sufis, Sheikh Harith bin Asad accountant, the owner of many classifications through the following investigations:

- The first topic: about the accounting tiller his life and upbringing.
- The second topic: with the accounting harith in his books and sayings.
- The third topic: between Al-Harith Al-Mahsabi and I carry bin Hanbal (d. ٢٤١ AH).
- The fourth topic: Al-Harith's accounting approach to Sufism.
- The fifth topic: the accounting tiller between the praisers and the leaders.

Through these detectives we can say: that Imam Harith bin Asad accountant, was an ascetic Sufi jurist modern fundamentalist speaking on the guidance of the Sunnah and sound insight, as he was a guide to the masses hears them and answers what benefits them, and say who gathered him these talents in that era in which he lived, and that what was raised about his personality of suspicions do not stand in front of scientific criticism righteous.

Keywords: accountant, method, mysticism, praisers, leaders.

المقدمة

الحمد لله وحده نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأمام المتقين، نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

لقد صدر البيان النبوي الشريف بأن خير القرون: قرنه صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم[1]، ثلاثة قرون هي خير القرون كما شهد من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، وهي شهادة لا تنفي الخير عن باقي القرون بعد الثلاثة كما يتبادر إلى بعض الأذهان، ولكن معناها تغليب الخير على هذه القرون، وندرة الأخيار في القرون التالية التي يسودها اضطراب الفكر والرأي والسلوك، وللأخيار بين زمرة الأشرار من الفضل ما للأخيار الذي حملوا أمانة تأسيس قواعد الدين والسلوك في عصور النور، فلكل مكانته من التاريخ لا ينكرها إلا جاحد.

فالقرن الأول هو قرن التشريع وحفظ السنة قولاً وفعلاً وتركاً وتقريراً عن السيد الكامل المكمل عين الأعيان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حتى لقد أصبح حفظ الصحابي وعمله من أصول التشريع، لا يختلف في هذا المبدأ اثنان.

ومع التشريع كان الفتح، وكان تفرق الصحابة أعلام الهدى والنور في البلدان المفتوحة، إما ليعطروا بدمائهم الطاهرة البلاد المفتوحة في سبيل إعلاء كلمة الله،

[1] البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، (١٧١/٣)، برقم (٢٦٥١)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

وتأصيل سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وإما لنشر العلم والتشريع، وتربية جيل من المعلمين المرشدين يحملون لواء الفكر من بعدهم عالياً عبر الأزمنة.

ومما لا خلاف عليه أن كل صحابي كان يعلم ما عرف من السنة، ويقيم تعاليمه وأحكامه على أساس ما عرف، فكان مع بعضهم ناسخ ومع الآخر منسوخ، أو مع بعضهم عام، ومع الآخر خاص، أو مع بعضهم مطلق ومع الآخر مقيد، وهكذا كانت جوانب العظمة العديدة في شخصية الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، تكون من خلالها عدداً هائلاً من المدارس الفكرية والتشريعية تتلمذ فيها أعداد هائلة من نجوم الهدى من أصحابه الأكرمين رضوان الله تعالى عليهم، فكانوا بحق ينابيع معرفة، وأعلام هدى، وأصول علم تتطلب من يجمع عنهم، وينظم السنة المتلقاة منهم تنظيماً زمنياً وأصولياً يضع الناسخ بعد المنسوخ، والمقيد بعد المطلق، والمخصص بعد العام.

وكانت تلك المهمة الشاقة هي مهمة علماء القرن الثاني، حيث استقرت الدولة الإسلامية، وأحاط الحفاظ علماً بالسنة؛ فلئن كان القرن الأول قرن التشريع والتجميع، فإن القرن الثاني هو قرن المقارنات والتنظيم.

ومن هنا كان القرن الثاني هو أغنى القرون وأثراها كيفاً لا كماً، إذ فيه وضعت أصول العلوم الإسلامية، وبدأت تبرز في مجال الإسلام الفسيح، وشجرات العلوم المختلفة تمد أغصانها للدارسين المستبصرين تطلب الري ومدد النماء.

وكان القرن الثاني في الواقع لا يكفي لاستيعاب فقه السنة والكتاب، وتأسيس أصول السلوك، بل إن أصول الوعي الروحي للإسلام لم تكن قد استمسكت جذورها بعد.

ولذلك لم يكن الفكر الإسلامي قد اكتمل كماً، وإن كان قد برز في سمائه أعلام مؤسسون، فإن التكامل يبدو عند ظهور الوجهات المقابلة، ورد التلاميذ على المقابلين لهم، وهو ما تم بالفعل في القرن الثالث، إذ كان الجمع والفقه والتأصيل، والتشاور والأخذ والرد بيد فحول العلماء الذين تمخضت عنهم القرون الثلاثة قد اكتمل جمعاً وفقهاً وضبطاً في جميع فروع المعارف الإسلامية الأصيلة، وأصبح على لوحة الزمن الأئمة مالك، والشافعي، وأحمد، أبو حنيفة، وابن المبارك، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد في مصر، كما كان في ميدان السلوك أمثال الجنيد البغدادي ومعروف الكرخي، وبشر الحافي.

وكان للسلوك والعقيدة معا الإمام الجليل الحارث بن أسد المحاسبي إذ هو أول من تكلم في إثبات الصفات، وأول من قمع قرون الشيطان الوافدة إلى بلاد الإسلام من ضلالات الأمم المفتوحة التي لا تزال تحن إلى وثنية زمنية قضى الإسلام على أصولها.

وقد كان الإمام المحاسبي متخصص في التصوف علماً وذوقاً وحالاً، وفي العقيدة ذوقاً واعتقاداً وعلماً ودفاعاً، فقيهاً شافعياً عظيماً لا خلاف فيه، وكان مع فقهه محدثاً خبيراً، عن عدد كبير من أئمة الحديث، من طبقة يزيد بن هارون وحدث هو كذلك، وسمع عنه الكثير من التلاميذ الذين صاروا أئمة فيما بعد.

ومن هنا يمكن أن يقال بحق: إن الإمام الحارث بن أسد المحاسبي، كان زاهداً صوفيا فقيها محدثا أصوليا متكلماً على هدى من السنة والبصيرة السليمة، كما كان مرشدا للجماهير يسمع منهم ويجيب بما ينفعهم، وقل من تجمعت له هذه المواهب في ذلك العصر الذي عاش فيه، ومن هنا تأتي أهمية دراسة تلك

الشخصية وإبراز أهم جوانبها ومنهجها في التصوف، وما دار حولها من جدل ونقاش.

وقد اهتم الباحثون بدراسة الفكر الصوفي والعقلي المتعلق بالإمام المحاسبي، وتنوعت الدراسات الخاصة عنه ما بين كتب مستقلة محققه، وبحوث علمية، ومن أشهر الذين كتبوا عن الإمام المحاسبي فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ عبد الحليم محمود، حيث حقق كتاب الرعاية لحقوق االله، وألف كتاب أستاذ السائرين، وقد عني فيه بدراسة حياة الإمام المحاسبي وكتبه.

وقدم الدكتور حسين القوتلي دراسة عن العقل ومنزلته عند الإمام المحاسبي في بداية تحقيقه لكتاب مائية العقل للإمام المحاسبي، وللأستاذ الدكتور / فتحي الزغبي بحث عن خصائص التصوف عند الإمام المحاسبي بعنوان: خصائص التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين من خلال المحاسبي والجنيد، وغيرهم كثير، لكن هذه الكتب وغيرها لم تتحدث بصفة مستقلة وخاصة عن منهج الإمام المحاسبي في التصوف، بل جاء الكلام بصفة عامة وهذا ما دفعني إلى أن أتحدث عنه تحت عنوان بحثنا: (المنهج الصوفي عند الحارث المحاسبي "دراسة تحليلية").

المنهج المتبع في البحث: اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي: في الحديث عن حياة المحاسبي وعصره ونشأته، والمنهج التحليلي في عرضي لآراء الشيخ وأهم ما قيل عنه، ثم المنهج النقدي للرد على ما أثير حول الشيخ المحاسبي.

مكونات البحث: لقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول: حول الحارث المحاسبي حياته ونشأته.

المبحث الثاني: مع الحارث المحاسبي في كتبه وأقواله.

المبحث الثالث: بين الحارث المحاسبي وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

المبحث الرابع: منهج الحارث المحاسبي في التصوف.

المبحث الخامس: الحارث المحاسبي بين المادحين والقادحين.

ثم **خاتمة** البحث وفيها أهم النتائج والتوصيات للبحث.

هذا وما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وحسبي إني اجتهدت وجمعت وحللت وقارنت، والله من وراءِ القصد وهو نعم المولي ونعم النصير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الكرام.

المبحث الأول

الحارث المحاسبي حياته ونشأته

تمهيد:

حتى نستطيع الإحاطة بحياة المحاسبي ومنزلته التي فاقت كل وصف وتقدير، علينا أن نقدم له بلمحة ولو بسيطة عن طبيعة التصوف السني وخصائصه الجوهرية، وأهم شخصياته في مدرسة بغداد، هذه الشخصيات التي وضعت أهم أسس التصوف السني وقواعده وشروطه حتى أصبح علما يعتد به في الفكر الإسلامي لأنه قام على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين.

نقول إذن، لقد اختص الصوفية المحققون من أهل السنة في معتقدهم وسلوكهم بالتزام الشرع من ظاهر معاني الكتاب ومدلولاته العقلية، ثم جعلوا الشرع معياراً لتلك الحقائق العليا المستنبطة في مجموع الشريعة كتابًا وسنة، وإرجاع القضايا إلى نصوص الشرع بعد التفقه فيه والتأدب بأدبه، قبل أن يسلكوا طريق التصوف ثم الاهتداء ثانياً بهدي الكتاب والسنة حالة سلوكهم، كل ذلك مع الإمعان المستوعب في مدلول الكتاب والسنة إلى أسمى وأعمق معانيها، جازمين بأن الشريعة إيمان فأعمال فأخلاق، ولذا كان صوفية أهل السنة هم علماء بعلوم الشرع، وعلماء بنظم المعتقد على أساس العقل، وعلماء بالله والنفس، ثم إن التصوف السني لما كان مختلطاً مع الفقه كان إسلامياً بحتاً.

كل هذا سوف نراه واضحاً كل الوضوح في صوفية مدرسة بغداد من أهل السنة مبتدئاً بأكبر ممثل هذه المدرسة ألا وهو الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) ومختتماً بجعفر الخلدي (٣٤٨هـ) ونستطيع القول بأن التصوف الإسلامي قد تميز

بالنمو والازدهار في هذه الفترة التي تبدأ منذ النصف الأول من القرن الثالث حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

ويؤكد القشيري في رسالته بأن خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى، الحافظون لقلوبهم عن طوارق الغفلة قد انفردوا باسم التصوف، وقد ذكر مشايخ هذه الطريقة وأقوالهم ليدل على تعظيمهم للشريعة، والاقتداء الدقيق بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحينئذ يقول ابن الخفيف: " اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم حالهم، الحارث بن الأسد المحاسبي، والجنيد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي، لأنهم جمعوا بين العلم-أي الشريعة- والحقائق"[1].

ولم يقف الأمر عند حد تأسيس هذا المذهب وكثرة مشايخه الذين أعانوا على هذا التأسيس إما تصريحاً أو تلميحاً، بل يتجاوزه إلى أمر آخر ذلك أن الصوفية أخذوا منذ هذه الفترة ينظمون أنفسهم طوائف وطرقاً يخضعون فيها لنظم خاصة بكل طريقة، وكان قوام هذه الطرق طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشد يسلكهم ويُبصرهم على الوجه الذي يحقق كمال العلم وكمال العمل[2].

وكان من هذه الطرق أو الفرق التي ظهرت في التصوف الإسلامي بعامة في عصره الذهبي، وفي التصوف البغدادي بخاصة، وهو عصر التصوف البحت الذي شهد معظم كبار الصوفية المبتكرين، وكان تصوفهم بعيدا نسبياً عن

[1] القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، ص ١٢، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، ط/دار المعارف، القاهرة

[2] البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد، (٢١١/٨)، تحقيق: د بشار عواد معروف، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م، ط/ دار الغرب الإسلامي – بيروت.

الاختلاط بالفلسفة وعلوم الأسرار، كانت هذه الفرق عشراً، فقد قسم الهجويري (ت ٤٥٦هـ) هذه الفرق الي اثنتي عشرة فرقة، قبل منها عشراً ورد اثنتين وضعهما تحت اسم الحُلُولية، أما العشرة المقبولة فأطلق عليها أسماء مؤسسيها[١].

وقد انتخبت من هذه الفرق خمساً فقط تمثل مدرسة بغداد وهم على التوالي:

١- المحاسبية: نسبة إلى الحارث بن أسد المحاسبي.

٢- السقطية: نسبة إلى السري السقطي.

٣- النورية: نسبة إلي أبي الحسين النوري.

٤- الجنيدية: نسبة إلى أبي القاسم الجنيد.

٥- الخرازية: نسبة إلى أبي سعيد الخراز.

والخمسة المنتخبة ممن اجتمع لهم علم الظاهر والباطن ويمثلون التصوف السني الحقيقي، فهم على الترتيب حسب وفياتهم: الحارث المحاسبي، والسري السقطي، أبو الحسين النوري، أبو القاسم الجنيد، وأخيرا جعفر بن نصير الخالدي.

التعريف بالحارث المحاسبي:

هو الحارث بن أسد المحاسبي، وكنيته أبو عبد الله: من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، ولد ونشأ بالبصرة واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها في يقين جازم، ثم ذهب إلى بغداد، ويبدو أنه ذهب إليها في سن مبكرة، واستقر به المقام فيها ومات ببغداد سنة ٢٤٣هـ، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره[٢].

---

[١] السلمي، أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص ٥٦، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م،ط/ دار الكتب العلمية – بيروت.
[٢] السلمي، أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص ٥٦-٥٨.

وإننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده إذ إن الكتب القديمة التي تحدثت عنه لم تذكر ذلك، بيد أن الملابسات ترشد إلى أنه ولد -على التقريب- في العقد السابع من القرن الثاني، أما وفاته فإن الكتب التي أرخت له أجمعت على تحديد سنة ٢٤٣هـ [١].

فقد كان واحداً ممن اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن، وله كتب كثيرة في الزهد وفي أصول الديانات، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما، وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع.

وكان المحاسبي من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر، وعلوم المعاملات والإشارات، له التصانيف المشهورة منها: كتاب الرعاية لحقوق الله، وكتاب التوهم، وكتاب الوصايا.

ولقد ذكر الامام السبكي المحاسبي ضمن طبقات الشافعية، وهو في الطبقة الأولى في من عاصر الشافعي (ت٢٠٤هـ بمصر) واختار مذهبه وقد كان إمام المسلمين في التصوف والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها، وإليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتيه[٢]. وقال عنه أيضا إنه لو لم يكن في أصحاب الشافعي في الفقه والكلام والأصول والقياس والزهد والورع والمعرفة إلا الحارث المحاسبي، لكان وقد قال جمع من الصوفية إن كتبه تبلغ مائتي مصنف، وهو بصري الأصل مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ [٣].

---

[١] المرجع السابق، ص ٥٧.

[٢] الصفاتية: هم الذين أثبتوا لله صفات لا هي ذاته ولا هي غير ذاته، وأهم ممثليهم في العالم الإسلامي هو ابن كلاب والمحاسبي. النشار، على سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (١٢٨/١)، الطبعة الاولي سنة١٩٦٩م، ط/ دار المعارف المصرية.

[٣] السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (٧٣/١)، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، ط/ هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

ويقول عنه أبو نعيم الأصبهاني بأنه: " كان لألوان الحق شاهداً ومراقباً، ولآثار الرسول صلى الله عليه وسلم ساعياً ومصاحباً، تصانيفه مدونة مستورة، وأقواله مبوابة مشهورة، وأحواله مصححة مذكورة كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً، وعن الخوض في الفضول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً، وقيل إن فعل ذوي العقول الأخذ بالأصول، والترك للفضول، واختيار ما اختاره الرسول ﷺ"[١].

وقد ذكر ابن النديم أن للحارث من الكتب: كتاب التفكر والاعتبار، وأنه كان من الزهاد المنكبين على العبادة والزهد في الدنيا والمواعظ وكان فقيهاً متكلماً مقدماً[٢] بل إنه أحد الأعلام المذكورين المشهورين المشهود لهم بالفضل الذين جمعوا علوم المواريث إلى علوم الاكتساب، الذين سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم وكان ضمن من صنفوا في المعاملات[٣].

ويؤكد الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" إن المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة، هو له السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه ويرجع إلى هذا السبب في تسميته بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه[٤].

---

[١] أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (٧٢/١٠-٧٤)، ط/ مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر عام ١٩٧٤م.

[٢] ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، ص ٢٦١، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الطبعة: الثانية ٢٠١٤ م، ط/ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - مركز دراسات المخطوطات الإسلامية، لندن – إنجلترا.

[٣] الكلاباذي: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص ١٢، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت.

[٤] العروسي: مصطفي العروسي، نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية زكريا بن محمد الأنصاري، مع حاشية العلامة العروسي، (٩٤/١)، تحقيق: عبد الوارث محمد على، دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٨٩م.

حياته الشخصية ونشأته:

لا نكاد نعلم عنها شيئاً؛ وقد يمكننا أن نقول استنتاجاً إنه قضى طفولته في شيء من اليسر والرخاء، ذلك أن والده حينما توفي ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم، ويروي المؤرخون أن المحاسبي حينما توفي والده لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً، ذلك أن والده كان يقول بالقدر: أي أنه كان قدرياً يدين بمذهب المعتزلة، فلم يستسغ المحاسبي أن يشترك في الميراث، توسعاً في تطبيق القاعدة الإسلامية التي تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين!![1]. وما من شك في أن المحاسبي امتنع عن ذلك لمجرد الورع والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير فيها، وتدبير لها وتنمية وحفظ، وهذه الحادثة ترشد إلى عدة أمور:

الأمر الأول: هو أن أسرة المحاسبي كانت أسرة ميسرة الحال.

الأمر الثاني: هو أن والد المحاسبي كان من الذين اشتركوا في الثقافة الدينية، والجدل الكلامي، وساهم في ذلك بنصيب وحدد المعسكر الذي يقف جندياً في جيشه، وما من ريب في أن العامة حينئذ لم يكونوا في صف المعتزلة، وما كان الذي يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختبار، وأن الطريق التقليدي الذي كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة.

والأمر الثالث الذي ترشد إليه الحادثة: هو ورع المحاسبي، يقول الجنيد: كنت كثيراً أقول للحارث: "عزلتي أنسي، فيقول: كم تقول عزلتي انسي!؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنساً، ولو أن نصف الخلق الآخر نأي عني ما استوحشت لبعدهم"[2].

[1] العروسي: نتائج الأفكار، (١/٩٥).
[2] القشيري: الرسالة القشيرية، ص ١٢٣.

هذه القصة ترشدنا كما هو ظاهر إلى قوة شخصية الإمام المحاسبي، والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التي أحاطت بالمحاسبي، ومواقف المحاسبي منها، وحديث تلاميذه عنه –وإن كان نادراً– كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية.

ومما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة، واشارة إلى ما للمحاسبي من شخصية قوية، وبياناً عابراً عن بعض أساليبه في تأليف كتبه، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله: كان الحارث المحاسبي يجيء إلى منزلنا، ليقول: أخرج معي نصحر–نذهب إلى الصحراء–فأقول له: تخرجني من عزلتي وأنسي على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول: أخرج معي، ولا خوف عليك، فأخرج معه فكأن الطريق فارغ من كل شيء، لا نرى شيئا نكرهه. فإذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال لي: سلني، فأقول له: ما عندي سؤال أسأله. فيقول: سلني عما يقع في نفسك، فتنثال علي السؤالات، فأسأله عنها فيجيبني عليها في الوقت ثم يمضي إلى منزله فيعملها كتابا[1].

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبي لم يكن يخشى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر، كلا، إنه يجابه الحياة محاولاً السير بها إلى ما يراه حقاً وإصلاحاً.

وترشدنا هذه القصة أيضا إلى ما يتعلق بطريقته في التأليف: فإنه يعمل أحيانا على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه، وهي طريقة حيه، إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأي الصريح فيه، ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق فإن

[1] الجنيد : الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، رسائل الجنيد، ص ١٣٠، تحقيق الدكتور جمال رجب سيدبي، الطبعة الاولي سنة٢٠٠٥م، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، سورة - دمشق وبيروت – لبنان. والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، (٢١٣/٧).

بعضها كان إسهاما في الحركة المقاومة لحركة الاعتزال، وكان بعضها حلقات في التخطيط الذي رسمه المحاسبي للإصلاح الأخلاقي في المجتمع.

ولنعد إلى المحاسبي أول ما قدم بغداد: كان ذلك فيما يبدو في سن مبكرة نسبياً، وكانت بغداد حينها تموج بمختلف التيارات الفكرية: ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيدة متغلبة، وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ، وبما لهم من مال وثراء، وبما لديهم من ترف فكري، وبما في نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس–شاعراً أو غير شاعر–في صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة.

وثقافة عربية مخلوطة بثقافات أخرى، تريد أن تجد حلاً للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية، وثقافة إسلامية بحتة تجاهد في أن تفوز في قيادة المجتمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهي، وجاء المحاسبي بغداد متعلماً، ومتثقفاً أو مستزيداً من العلم والثقافة: يبغي السير على الصراط المستقيم.

وأخذ المحاسبي في الدرس في جدة واجتهاد فتشعبت به الطرق وتجاذبتها الثقافات المختلفة، تحاول كل منها أن تستأثر به وحدها ولكل منها مغرياتها، ولكل منها منطقها، ووقف المحاسبي مستوعبًا متأملاً متروياً، فهل طال به الوقوف؟ متى خرج من تأمله، متى تستقر به الاتجاه؟ ذلك ما لا نعلمه، إذا نظرنا إلى الزمان.

بيد أن المحاسبي وإن لم يعتن التاريخ بدراسة حياته، فإنه ترك لنا أثراً نفسياً، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية وعن أسبابها وعن كيفية خروجه منها، وهذا الأثر نعتبره أساسا لكتاب المنقذ من الضلال

راسما للإمام الغزالي تخطيطه، موجها له إلى كتابته، بل راسما له الطريق في حياته الروحية.

ولعل التشابه بين هذا النص الذي نثبته الآن وكتاب "المنقذ من الضلال" ما يجعلنا نستنتج أن التشابه قوي بين المحاسبي والغزالي في حياتهما.

ولأهمية هذا النص بالنسبة للمحاسبي و لعصره، وبالنسبة لصلته بكتاب "المنقذ من الضلال" صلة وثيقة نثبته بأكمله، وإن كان فيه بعض الطول، وقد كتبه المحاسبي مقدمة لكتابه "الوصايا" يقول المحاسبي في مفتتح كتابه "الوصايا" بعد مقدمة موجزة:" أما بعد: وقد انتهى إلينا: إن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والله أعلم بسائرها، فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل واستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيرا من كلام الله عز وجل، بتأويل الفقهاء.

ونظرت في أحوال الأمة ومذاهبها وأقاويلها، فعقلت من ذلك ما قدر لي، ورأيت اختلافهم بحراً عميقًا قد غرق فيه ناس كثر، وسالم منه عصابة قليلة ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة فيمن تبعهم، وأن الهالك من خالفهم، ثم رأيت الناس أصنافاً: فمنهم العالم بأمر الآخرة فلقاءه عسير ووجوده عزيز، ومنهم الجاهل فالبعد عنه غنيمة، ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها، ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتمساً بعلمه التنظيم والعلو ينال بالدين من عرض الدنيا. ومنهم متشبه بالنساك، متاجر بالخير، لا غناء عنده، ولا بقاء لعلمه، ولا معتمد على رأيه. ومنهم حامل علم، لا يعلم تأويل ما حمل. ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى. ومنهم متوادون على

الهوى يتفقون وللدنيا يتباذلون ورياستها يطلبون، عن الآخرة يصدون، وعن الدنيا يتكالبون وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء وعن العرف موتى، بل العرف عندهم منكر والسوء معروف، فتفقدت في الأصناف نفسي وضقت بذلك ذرعاً.

فقصدت إلى هدى المهتدين، بطلب السداد والهدى، استرشدت العلم، وأعملت الفكر وأطلت النظر، فتبين لي في كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة: إن اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق ويطيل المكث في العمى!!

فبدأت بإسقاط الهوى شأن قلبي، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادًا لطلب الفرقة الناجية، حذراً من الأهواء المردية والفرقة الهالكة، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسي، ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل، أن سبيل النجاة: في التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه، والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعاً واختلافاً، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره، وأن الفقهاء عند الله العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله صلى الله عليه وسلم، المؤثرين الآخرة على الدنيا، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين.

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليه أقف آثارهم، وأقتبس من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت تعلمهم مندرسًا، كما قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم:(بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[١]، وهم منفردون بدينهم.

فعظمت مصيبتي بفقد الأدلاء الأتقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئني على اضطراب من عمري، لاختلاف الأمة، فانكمشت في طلب عالم، لم أجد لي من معرفته بداً لم أقصر في الاحتياط، ولم أَنِ في النصح، فقيض لي الرؤوف بعباده، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة عن الدنيا.

ووجدت إرشادهم وصايهم موافقة لأفاعيل ائمة الهدى، ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة لا يرجون أحدا في معصيته، ولا يقطعون أحدا من رحمته، يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء، يحببون الله تعالى إلى العباد، بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى. علماء بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسنته، فقهاء في دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين التعمق والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى، مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، ورعين في مطاعمهم وملابسهم، وجميع أحوالهم، مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مجتزئين بالبلغة من الأقوات، متقللين من المباح، زاهدين في الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد، مشغولين بشأنهم، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكل امرئ منهم شأن يغنيه.

علماء بأمر الآخرة، وأهاويل القيامة وجزيل الثواب، وأليم العقاب، ذلك

---

[١]مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، كتاب الايمان، باب بدأ الإسلام غريبا، (١٣٠/١) برقم ٢٣٢، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت

أورثهم الحزن الدائم، وَأَلْهمّ المضني، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها.

ولقد وصفوا من آداب الدين صفات، وحدوا للورع حدوداً ضاق لها صدري!، وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع، بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى، ولا يقوم بحدوده مثلي، فتبين لي فضلهم واتضح لي نصحهم، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشدهم، فأصبحت راغباً في مذهبهم، مقتبسا من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محبا لطاعتهم، لا أعدل بهم شيء، ولا أؤثر عليهم أحداً.

ففتح الله لي علماً انفتح لي برهانه وأنار لي فضلة، ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت الرآن متراكماً على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجة البالغة لمن نفهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبا علي.

فاعتقدته في سريرتي، انطويت عليه بضميري، وجعلته أساس ديني، وبنيت عليه أعمالي وتقلبت فيه بأحوالي، وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكر ما أنعم به علي، وأن يقويني على القيام بحدود ما عرفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك وأني لا أدرك شكره أبدا"[١].

ووجد المحاسبي نفسه حينئذ في معسكر أهل السنة على وجه العموم، وفي تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص، ولم يكن المحاسبي ذا طبيعة سلبية، فكان لا بد من أن يدخل المعركة، ودخل المعركة في قوة قوية مسلحاً بالعلم والتقوى. ومن أجل ذلك كان ذا أثر مزدوج، لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة وأثر باعتباره عالماً

---

[١] المحاسبي: الحارث بن اسد، **الوصايا**، ص ٥٩-٦٣، تحقيق: عبد القادر احمد عطا، الطبعة الأولي سنة١٩٨٦م، دار الكتب العلمية - بيروت

باحثاً، وأثره كعالم كان يظهر في دروسه ومناقشاته ويظهر في كتبه.

إسناده للحديث:

حدث الحارث المحاسبي عن يزيد بن هارون وطبقته، وروي عنه أبو العباس بن مسروق الطوسي، وأحمد بن عبد الجبار الصوفي، والشيخ الجنيد، وإسماعيل بن إسحاق السراج، وأبو علي الحسين بن حران الفقيه وغيرهم[١]. وقد ذكر الخطيب البغدادي له حديثين ويتفق معه في ذلك أبو نعيم الأصبهاني، أما السلمي فيتفق معهما في حديث واحد أورده.

قال الحارث بن أسد المحاسبي: حدثنا يزيد بن هارون حدثنا شعبة عن القاسم ابن أبي بزة عن عطاء الكيخراني عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أثقل ما يوضع في الميزان حسن الخلق)[٢].والحديث الذي ذكره الخطيب البغدادي هو:(أفضل ما يوضع في ميزان العبد يوم القيامة حسن الخلق) [٣]. وحديث أبو نعيم الأصبهاني:(ما يوضع في الميزان أفضل من خلق حسن)[٤].

أما الحديث الآخر فهو: قال أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي حدثنا الحارث بن أسد، حدثنا محمد بن كثير الكوفي عن ليث بن أبي سليم، عن عبد الرحمن بن أسود، عن أبيه، أنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (شغل

---

[١] السبكي: طبقات الشافعية، (٣٧/٢)

[٢] الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة، باب ما جاء في حسن الخلق، (٤٣١/٣) برقم (٢٠٠٣)، ط/ دار الغرب الإسلامي – بيروت سنة ١٩٩٨م. والسلمي: طبقات الصوفية، ص٥٦-٥٧.

[٣] ابن شاهين: أبو حفص عمرو بن احمد بن عثمان، الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك، ص ١٠٩، تحقيق/ محمد حسن، الطبعة الاولي سنة ٢٠٠٤م، ط/ دار الكتب العلمية- بيروت، والبغدادي، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، (٢١٢/٨).

[٤] أبو نعيم، حلية الأولياء، (١١٠/١٠).

النبي في شيء من أمر المشركين فلم يصل الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فلما فرغ صلاهن الأول فالأول، وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف)[1].

وسوف نرى أن ذكر الحارث هذه الأحاديث يتماشى مع مذهبه في التصوف، فالتصوف عنده خلق، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، ثم الحديث الثاني الذي يدل على وجوب القيام بما هو أفضل، فمثلا الفرض أوجب من النافلة.

وكل ذلك نجده في كتابه (الرعاية لحقوق الله) حيث يقول: " وأول منزلة من الرعاية، وأهلها أقوى الخلق في الرعاية لحقوق الله عز وجل مثل: الرعاية عند الخطرات ثم يقول: وأوجب الله عز وجل ألا ينال فرضه بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضه نافلة مما يتقرب بها إليه، فعليك وعلى العباد ألا يؤخروا من فرضه ما أوجب أن يبدأ به، ولا يقوم بما أمر أن يؤخر بعد غيره من الفرض، ولا يتركوا فرضاً لطلب قربة بنافلة ولا غيرها"[2].

المحاسبي قد وضع هدفا له في الحياة يسعى إلى تحقيقه، وهو حسن الخلق لقد وضعه هدفاً يعمل إلى تحقيقه في نفسه، ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في مجتمعه، أما فيما يتعلق بنفسه، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية على أساس من القرآن والسنة لا يحيد عنه. وإنه ليعبر عن شعاره في ذلك فيقول هذه الكلمة التي تصفه حالاً ومقالاً: "إذا أنت لم تسمع داء الله، فكيف تجيب داعي الله؟ ومن يستغنى بشيء دون الله جهل قدر الله"[3].ولم يجهل المحاسبي قدر الله، فلم يستغن بشيء دونه سبحانه.

---

[1] الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد - أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، (٤٨/٢)، ط/ دار الحرمين – القاهرة سنة ١٩٩٥م. وأبو نعيم، حلية الأولياء، (١١١/١٠).

[2] المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ت/ عبد الحليم محمود، ص ٤٠، الطبعة الثالثة ط/ دار المعارف، البغدادي، تاريخ بغداد، (٢١٣/٨).

[3] المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ت/ عبد الحليم محمود، ص ٨.

وأما فيما يتعلق بالمجتمع، فإن المحاسبي أخذ في نشر حسن الخلق فيه بسمته واتباعه للسنة، وبدروسه التي كانت تفعل الأعاجيب في القلوب، وبتقوى الله التي تبين حسن الخلق وسائل وغايات، والتي لا يزال لها إلى الآن أريج عطري يتجدد على مر من الزمن فيهدي الحيارى، وينير الطريق أمام السالكين.

وفاته – رحمه الله:

ذكر الحافظ ابن كثير وابن خلكان[١] أنه مات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ قال الحافظ: "قلت وفيها توفي الحارث بن أسد المحاسبي أحد أئمة الصوفية "[٢].

ذكر الخطيب في تاريخ بغداد وفاته، فقال: "حدثت عن دعلج بن أحمد قال: سمعت القاضي الحسين بن إسماعيل المحاملي، يقول: قال لي أبو بكر بن هارون بن المجدر، سمعت جعفر بن أخي أبي ثور يقول: حضرت وفاة الحارث يعني المحاسبي فقال إن رأيت ما أحب تبسمت إليكم، وإن رأيت غير ذلك تبينتم في وجهي، قال فتبسم ثم مات، وقال ومات سنة ثلاث وأربعين ومائتين"[٣].

---

[١] ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، (٥٨/٢)، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الاولي ١٩٧١م، دار صادر - بيروت
[٢] ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، البداية والنهاية، (٢٤٥/١٠).
[٣] البغدادي: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، (٨/٣).

المبحث الثاني

مع الحارث المحاسبي في كتبه وأقواله

أما كتبه فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتي مصنف، حسب ما روى السبكي في "طبقات الشافعية" والمناوي في "الكواكب الدرية"، وهذه الكتب–في أغلبها الأعم– إنما هي في هداية النفوس، وترقيق القلوب، والسير بالأرواح على عالم الفلاح، إنها في أغلبها في علم التصوف والسلوك.

جاء في الكواكب الدرية عن المحاسبي: " هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام"[1]. ولقد كتب المحاسبي في هذه العلوم جميعها بيد أن مسحته الظاهرة ونزعته الواضحة بالكثرة الكثيرة من كتبه، إنما كانت في التصوف والكلام، أما كتبه في الكلام فإنها قد فقدت، ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدها هو حملة الإمام أحمد بن حنبل عليها، يقول الخطيب البغدادي: " وكان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظره في الكلام، وتصانيفه الكتب فيه، ويصد الناس عنه"[2].

ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" ويفصل الرأي فيها ويحسم المسألة بحل موفق فيقول: " لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي–رحمهما الله– تصنيفه في الرد على المعتزلة، فقال الحارث: الرد على البدعة فرض، فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها، فبما تأمن أن يطالع الشبهة ما تعلق بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟"

---

[1] المناوي: زين الدين محمد عبد الرؤوف ، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، (١٣٥/١)، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار صادر- بيروت.
[2] البغدادي: تاريخ بغداد، (١١٤/٨).

وما ذكره الإمام أحمد: حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر فأما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية، ولقد أصاب الإمام التوفيق في رأيه ، وأن من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم، وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة، ومهما يكن من شيء، فقد كان الإمامان: أحمد والمحاسبي متعاصرين، وحدث بينهم اختلاف في الرأي يتعلق بالكتابة في المسائل الكلامية، وحمل الإمام أحمد على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام فقل تداول الناس لها-فيما يبدو-واختفت شيئا فشيئا، ولعل بعضها لا يزال موجودا، بيد أننا لا نعلم عنها شيئا"[١].

على أن المحاسبي في المسائل الكلامية معروف تحدث عنه الشهرستاني وغيره ممن كتبوا في الملل والنحل[٢]، وهو الرأي السلفي، ولم تكن حملة الإمام أحمد عليه لرأيه وعقيدته، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان، وإنما كان إنكار الإمام أحمد عليه للإسلوب والطريقة التي ينصر بها الدين، وما من ريب في أن ما قام به الإمام المحاسبي في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف، إنما هو في الوقت نفسه انتصار للإمام أحمد بن حنبل وتقوية له، وعون على بلوغه غايته رضي الله عنهما.

ومما يدل على إعدامه وحرقه لبعض كتبه في الكلام ما قاله هو بنفسه: " عملت كتاباً في المعرفة وأعجبت به، فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسن له، إذا دخل علي شاب عليه ثياب رثه فسلم علي وقال: يا أبا عبد الله، قال: ما

[١] الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المنقذ من الضلال، ص ١٥٩، دار الكتب الحديثة- مصر
[٢] الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد، الملل والنحل، (٩٣/١)، ط/ مؤسسة الحلبي.

معرفته حق للحق على الخلق، أو حق للخلق على الحق؟ فقلت له: حق على الخلق للحق، فقال: هو أولى أن يكشفها لمستحقيها، فقلت: بالحق للخلق على الحق. فقال: هو إعداد من أن يظلمهم ثم سلم عليه وخرج، وقال الحارث: فأخذت الكتاب وحرقته، وقلت لا عدت أن أتكلم في المعرفة بعد ذلك"[١].

أما كتبه في أدب النفس وتزكيتها هو في الإنابة إلى الله والرجوع إليه، وفي الرعاية لحقوق الله وفي التصوف على وجه العموم، فقد بقي منها كثير عرفنا عنها جملة صالحة لا تزال مخطوطة وطبع البعض في أوروبا والقاهرة وسوريا.

فقد صنف المحاسبي الكتب وتكلم فيها عن الجوع والفقر والوساوس والخطرات، فأخرج لنا كتباً عديدة حظينا منها بثلاثة كتب كان لبعضها أثر كبير في تصوف الغزالي، وترك لنا أقوالاً في المحبة الإلهية خاصة، وأفرد لها رسالة عنوانها" في المحبة" ضاع أسطرها ولم يبق منها إلا شذرات حفظها لنا أبو نعيم الأصبهاني في كتابه "الحلية"[٢]. ونجد له أيضا بعض متفرقات من أقواله أوردها لنا المؤرخون نلمس منها منهجه في التصوف.

أولاً: ولنبدأ بالكتاب الأول "النصائح" أو "الوصايا""[٣] الذي يحدثنا فيه عن الحياة الإسلامية في عصره، وعن تقلباته الروحية، والمنهج الصوفي، وما تكشف له من حقائق، وما تجلى له من معارف، فلقد كان الحارث متعطشاً إلى المعرفة، والبحث والاطلاع، وإلى الوصول لرأي لا يعتريه الشك، إلى رأي يقيني ثابت لا

[١] الشعراني: عبد الوهاب بن أحمد بن علي، الطبقات الكبرى، (٦٤/١)، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، سنة ١٣١٥هـ.
[٢] د. عفيفي: التصوف الثورة، ص ١٢١.
[٣] المحاسبي: الحارث بن أسد، كتاب الوصايا أو النصائح الدينية والنفحات القدسية لنفع جميع البرية، تحقيق عبد القادر احمد عطا، الطبعة الاولي سنة ١٩٨٦م، ط/دار الكتب العلمية- بيروت.

يتزلزل ولكنه بعد أن بحث زاد شكاً، واضطربت نفسه، وخشي أن يأتيه الموت فجأة قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم فكد وجد، ثم يئس من أن يصل إلى النتيجة، ولكن الله وفقه في النهاية إلى الاتصال بقوم صالحين، فسكن إليهم وأخلد لأن سيماهم في وجوههم تبعث الثقة وتهتدي إلى الرشاد[١].

بدأ المحاسبي في كتابته لمقدمة هذا الكتاب بحديث: "ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة، إن الناجية منها واحدة حيث يقول:" أما بعد، فقد ينتهي إلينا أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والله أعلم بسائرها"[٢]. ولقد تدبر المحاسبي أحوال الأمة ونظر في مذاهبها وأقاويلها، فعلق من ذلك ما قدر له، ورأى اختلافهم بحراً عميقاً قد غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة، ورأى كل صنف منهم يزعم أن النجاة في تبعهم، وأن الهالك من خالفهم ثم رأى الناس أصنافاً:

فمنهم العالم بأمر الآخرة، ولقاؤه عسير ووجوده عزيز، ومنهم الجاهل، فالبعد عنه غنيمة، ومنهم المتشبه بالعلماء، مشغوف بدنياه مؤثر لها، ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا، ومنهم حامل علم الله لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم متشبه بالنساك، متجر بالخير لا غناء عنده، ولا بقاء لعلمه ولا معتمد على رأيه، ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء مفقود الورع والتقى، ومنهم متوادون، على الهواء متفقون وللدنيا يتناولون ورياستها يطلبون، ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون وعن الدنيا

---

[١]المحاسبي: كتاب الوصايا ، ص ٢٠، والغزالي: أبو حامد محمد بن محمد ، المنقذ من الضلال، ص ٤٠ ، مع مقدمات التصوف للدكتور عبد الحليم محمود والكتاب من تحقيقه، ط. القاهرة ١٩٦٣م.
[٢]المحاسبي: كتاب الوصايا، ص ٢١

يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء وعن العرف موتى، بل العرف عندهم منكر والسوء معروف"[١].

حينئذ اتجه المحاسبي إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجماع الأمة ليسقط عن قلبه الهوى ملتمساً النجاة، بحثاً وطلب عن الفرقة الناجية فوجد أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله وأداء فرائضه، والورع في حلاله وحرامه وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى وطاعته، والتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

والفرقة الناجية هم قوم وجد فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا، وهم مجتمعون على نصح الأمة ولا يعزون أحدًا في معصية، ولا يقنطون أحداً من رحمته، وهكذا يستمر في وصفهم حتى أصبح راغباً في مذهبهم مقتبساً من فوائدهم قابلاً لآدابهم، محباً لطاعتهم لا يعدل بهم شيئاً ولا يؤثر عليهم أحداً ويقصد بهم الصوفية.

والغزالي يتفق تمام الاتفاق مع الحارث المحاسبي في كل ما سبق ذكره، فقد بدأ الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال" بنفس الحديث الذي ذكره المحاسبي وتكاد بعض جمله تكون مأخوذة من كلام المحاسبي نصاً، مما دعى بعض المستشرقين إلى القول بأنه تأثر به[٢]. فيقول الغزالي مجيباً أحد المتسائلين:" إن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيها الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون"[٣].

ثم يعطيني الغزالي بحثاً طريفاً عن أصناف الناس، كان الغرض منه هو التعرف

---

[١] المحاسبي: كتاب الوصايا: ص ٢٦

[٢] الغزالي: المنقذ من الضلال، ٤١-٤٥، مقدمة المحقق.

[٣] الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٢٤.

على عقيدة كل فرقة، واستكشاف أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، فيقول:"

١- لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن اطلع على بطانته.

٢- ولا ظاهرياً الا وأعلم حاصل ظاهرته.

٣- ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.

٤- ولا متكلماً إلا واجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته.

٥- ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته.

٦- ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

٧- ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جراءته في التعطيل وزندقته[1].

وإن كنا نرى بعض الخلاف بين تصنيف الغزالي لفرق الناس وطوائفهم، والتصنيف الذي ذكره المحاسبي، إلا أن ذلك يدل على نوع الثقافة والحياة التي كان يحياها الناس في عصر كل منهما، فنجد الغزالي بعد ذلك يحصل أصناف الطالبين في أربع فرق وهي: المتكلمون، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية.

أما عن علم الكلام فلم يكن في حقه كافياً ولا لدائه شافياً، وأما الفلسفة فقد ذكر آفات كثيرة مما يدل على بطلانها عنده، وأما الباطنية أو مذهب التعليم فلهم شبهات ووجب الكشف عن حقيقة مذهبهم، ويذكر الغزالي في هذه المناسبة ما جرى بين الإمام أحمد والمحاسبي آن ذاك ما صنفه المحاسبي من كتاب في الرد على المعتزلة، فأنكر الإمام أحمد عليه ذلك، ولكن الحارث المحاسبي قال

[1] المرجع السابق، ص ١٢٥-١٢٨.

له: " الرد على البدعة فرض"[١]، وهذا ما فعله الغزالي تماماً عندما بين تهافت الفلاسفة المشائين الإسلاميين، وكتب عن فضائحهم الباطنية.

أما الصوفية، فكأن العلم عند الغزالي أيسر من العمل الذي هو صفه لهم، فابتداء في تحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل" قوت القلوب" لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد و الشبلي، وأبي يزيد البسطامي، فأعجب الغزالي بالتصوف واتخذه طريقا له، وهو العلم الذي يزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء، وذلك يحول بينه وبين المعاصي، وهي نفس أقوال المحاسبي[٢].

ومن هذا كله يظهر لنا مدى تأثر الإمام الغزالي في هذه الأفكار بالشيخ المحاسبي، وسوف يظهر لنا أيضا مدى هذا التأثر في الكتب التاليه، مما يدل على الصلة الروحية الوثيقة بين الشيخين رضي الله عنهما.

ثانياً: أما كتاب "الرعاية لحقوق الله" فهو كتاب ضخم، وهو من المصادر الرئيسية التي يظهر أثرها بوضوح في كثير مما ذكره الغزالي في "إحياء علوم الدين" فلقد كان المحاسبي أستاذ الغزالي في معالجة المسائل الصوفية وعرضها وتحليلها وتعميق معانيها، والربط بينها وبين المعاني الدينية الإسلامية، قال ابن عطاء الله السكندري:" قرأت عن أبي العباس كتاب "الرعاية للمحاسبي" فقال: جميع ما في هذا الكتاب يغني عنه كلمتان: أعبد الله بشرط العلم ولا ترض عن نفسك أبداً، ثم لم يأذن لي قراءته بعد"[٣]. ولا ندري لذلك سبباً؟!

---

[١]البغدادي: تاريخ بغداد، (١١٤/٨).
[٢]الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٢٥-١٩٧.
[٣]السندوبي: حسن السندوبي: أبو العباس المرسى ومسجده الجامع في الإسكندرية ص ٧٤، الطبعة الأولي ١٩٤٤م، ط/دار الكتب المصرية - القاهرة .

وينقسم هذا الكتاب بعد ذكر معرفة التقوى وما هي، والتوبة وخوف العبد من الله، ورعاية حقوق الله عند الخطرات، وغير ذلك مما يتصل بأعمال القلوب والجوارح، ينقسم إلى ثمانية كتب هي على الترتيب:

١- كتاب الرياء.

٢- كتاب الإخوان ومعرفة النفس.

٣- التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها.

٤- كتاب العجب.

٥- كتاب الكبر.

٦- كتاب الغرة.

٧- كتاب الحسد.

٨- كتاب تقديم المريد وسيرته وتحذيره.

وتُلخص لنا هذه الفروع جميعها الموضوع الأساسي للكتاب وهو الإخلاص وتطهير النفسي والحياة الأخلاقية الكاملة، ولقد قال ماسنيون عنه إنه قد بلغ في تحليل نزعات النفس ونزاعات الهوى حداً لا يجارى، وقد سما فيه بالتحليل النفسي إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً[١].

ولقد جاء في هذا الكتاب بعض الأمور التي أقرها وأجمع عليها الصوفية من أهل السنة، وذلك مثل رؤية الله بالإبصار في الآخرة، وإنه يراه المؤمنون دون الكافرين لأن ذلك كرامة من الله حيث يقول المحاسبي:" في الوقت الذي أمنوا فيه من كل ما كانوا يخافون، وحلوا في كل ما كانوا يأملون، وفيما لم تبلغه آمالهم في مقعد الصدق الذي وعده فيه بأن يريهم وجهه، ويبلغهم غاية الكرامة من رؤية

[١] المحاسبي: الرعاية، ص١٣-١٤، مقدمة المحقق.

رضوانه، فقال لهم في ذلك المقعد الذي ليس فوقه منزلة ولا بعده غاية كرامة: مرحبا بعبادي و زواري وخيرتي من خلق، الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي، وخافوني بالغيب، وهو حديث عن النبي رواه عنه محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم[1]، عندئذ انجز الله ما وعد به عباده الأخيار من الرؤية والنظر إلى وجهه الكريم، فيقول جل من قائل: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)[القمر: ٥٤، ٥٥]"[2].

ثم يعرف التقوى بأنها اتقاء الشرك فيما دونه من ذنب ومن كل ما نهى الله عنه، أو تضيع واجب مما افترضه الله، وهو يستشهد بالآيات والأحاديث على ذلك، وأصل التقوى عنده الخوف والحذر من الله الذي يقول: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[الرحمن:٤٦]، (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)[النازعات:٤٠] فأخبر العليم أن الخوف كان قبل التقوى ونتيجة ذلك أن وعدهم لله الأمن فقال: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)[الدخان:٥١] ومن التقوى كان الورع وهو مجانبة ما كره الله عز وجل.

وكان الحارث شأنه في ذلك شأن كل صوفي متفائلاً كل التفاؤل في عفو الله ومغفرته لمن تاب صادقاً في توبته؛ لأنه كريم يتكرم في من يتباعد منه فكيف بمن يتقرب إليه؟ ويتحبب إلى من يتبغضوا إليه، فكيف بمن يتحبب إليه؟ أما الذي يبعث الفرض على التوبة وترك الإصرار ويتحول به عن خطاياه وذنوبه فهو الخوف والرجاء لربه؛ لأن الله نهاه عما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه والخوف الدائم

[1] الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢١/٤٤٥)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ط/ دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر.
[2] المحاسبي: الرعاية: ص ٦٩.

هو صفة أولياء الله حيث يقول المولى عز وجل: (يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)[أنبياء: ٩٠][١]. وإننا لا نجد أثر منصور بن عمار(ت:٢٢٥هـ) واضحاً كل الوضوح في أقوال الحارث المحاسبي عندما تحدث منصور عن التقوى المؤسسة على الخوف والرجاء.

وعندما يتحدث المحاسبي عن الخطرات في اعتقاد القلوب فإنه يطلب من العبد التثبت بالعلم الدال على الخطرات حتى يستدل فيعلم من أي الوجوه والخطرة حين تعرض، فيجعل الكتاب والسنة دليله، فإن لم يثبت بعقله ويجعل العلم دليله، لم يبصر ما يضره مما ينفعه، وهو هنا يقصد العقل المؤسس على الكتاب والسنة أي العلم، فالإنسان يعرف بالعلم ويثبت بالعقل، ويضرب لهما مثالين طريفين: فمثل البصر الصحيح كمثل العقل، ومثل سراج كمثال العلم، ثم يربط بينهما فيقول:" ومثل النظر بتثبت مثل التثبت بالعقل والاستضاءة بالعلم وعرض ما يخطر على الكتاب والسنة"[٢]. وهو هنا على العكس من المعتزلة التي تقدم العقل على الكتاب والسنة.

ويضرب لنا أمثلة متعددة من هذه الخطرات التي تخطر بالقلب حين يقول:" وقد يقبل الخطر يُرى أنها داعية إلى سنة وهي بدعة، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة، كخطرة تدعو إلى الإخلاص بطرق العمل وإلى التنزه عن الخلق بالفكر، وإلى القدر بتنزيه الله عز وجل-أي القول بحرية الإرادة ويقصد بهم المعتزلة-وإلى رأي جهم بن صفوان(ت:١٢٨هـ) بنفي التشبيه أي أن الصفات عين الذات، وإلى التشبيه بنفي رأي جهم، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد، وإلى الخروج بالسيف

[١] المصدر السابق: ص ٢٥-٥٠
[٢] المحاسبي: الرعاية: ص ٧٩-٨٠

بالغضب لله عز وجل-أي الخوارج-، أو إلى الرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان أي المرجئة"[١]. وهنا يتأكد لنا موقف الحارث المحاسبي من الفرق الكلامية وبغضه لها ومهاجمته لآرائهم المختلفة المتصلة بالتوحيد.

ومن الغريب حقاً أن يشير المحاسبي إلى قوم أشار إليهم فيما بعد ابن الجوزي في كتابه" تلبيس إبليس" حيث يقول الحارث:" قد يدعوه العدو إلى الابتداع في جهده وفي رضائه وتوكله، فيخالف جهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ورضائهم ويقينهم، بمخالفة السنة واعتقاده البدعة، وهو يرى أنها سنة كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضيع العيال، وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد، والخروج في السفر بلا زاد، ورضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين، وبتحريم الدواء والدعاء وترك التمني، ان المعاصي لم تكن، بالاشتغال بالله عز وجل بترك الفرائض وبترك النوافل، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب، من القطع على ما في ضمائر الخلق، وما يسرون ويكتمون، لا ويحتجون في ذلك بآثار، مثل قوله صلى الله عليه وسلم(المؤمن ينظر بنور الله)"[٢].

ولا يشك في أن الحارث المحاسبي يكشف لنا عن حقيقة بعض هؤلاء المتصوفة الزنادقة الذين ظهروا في عصره، والذين أباحوا لأنفسهم ما حرم الله عليهم بحجة الزهد والتوكل والرضا وادعاء علم الغيب، وقد أشار إليهم الرازي باسم" المباحية" وهم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها وتلبيسات في الحقيقة وهم يدعون محبة الله

---

[١] المصدر السابق: ص ٨١

[٢] المصدر السابق: ص ٨٢. وورد الحديث في سنن الترمذي، باب ومن سورة الحجر، (١٤٩/٥)، برقم(٣١٢٧)، بنص (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ})، وقال هذا حديث غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه

تعالى، وليس لهم نصيب في شيء من الحقائق، بل يخالفون الشريعة ويقولون إن الحبيب رفع عنا التكاليف وهؤلاء شر الطوائف وهم على الحقيقة على دين مزدك الذي ادعى النبوة وأظهر دين الإباحة، وقد أشار إليهم أيضا كل من القشيري في رسالته، والغزالي في كتابه المنقذ من الضلال[١].

ثم نرى بعد ذلك المحاسبي الفقيه الذي يضع شروط أداء الفروض وترتيبها في الأداء والوجوب وهو هنا يعالجها كصوفي وزاهد حيث يقول:" إذا عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد بدأ بأوجبهما قبل الآخر الذي هو دونه في الوجوب، أو عرض له واجبان أحدهما له وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته، بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر، فإن كان في فرض فعرض له فرض آخر أوجب منه، قطع ما هو فيه ودخل فيه أوجبهما، وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعه من أجلها، وكذلك الفضل والتطوع، يبدأ بالأفضل فالأفضل كما كُتبت له وعلى قدر الأوقات"[٢].

ولا غرو فالكتاب طويل وشاق، لذا أجد أنه من اللازم والواجب على أن أقتصر على اقتباس بعض التعريفات التي وردت فيه، وعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر يقول المحاسبي:

١- فالرياء -وهو الكتاب الأول عنده-هو إرادة غير الله عز وجل بالطاعة.

١القشيري: الرسالة ص ٢-٣، والغزالي المنقذ من الضلال، ص ١٩١. فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسلمين، ص ١٥. والمزدكية هي دينٌ ثَنَوي منبثق عن المانوية، وقول المزدكية كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين، إلا أن مزدك كان يقول :إن النور يفعل بالقصد والاختيار. والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق. والنورعالم حساس، والظلام جاهل أعمى. وإن المزاج كان على الاتفاق والخبط، لا بالقصد والاختيار، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار.
٢المحاسبي: الرعاية: ص ٨١

٢- والعجب: هو آفة في كثير من العباد، وهو يعمي القلوب حتى يرى المعجب أنه محسن وهو مسيء، وأنه ناجٍ وهو مهلك، وأنه مصيب وهو مخطئ.

٣- والكبر: عظيم الآفات عنه تشعب أكثر البليات، والكبر لا يحق إلا لله عز وجل ولا يليق ولا يصلح لمن دونه.

٤- والغرة: خدعة من النفس والعدو بذكر الرجاء بالتوحيد، أو بالآباء الصالحين أو بعمل قليل ضعيف، طب فتطيب نفسه بتلك الخدعة حتى تهون عليه ذنوبه لظنه أنها مغفورة.

٥- والحسد: في الكتاب والسنة على وجهين أحدهما: غير محرم مثل المنافسة، والآخر محرم وهو الذي ذمه الله في كتابه والرسول في سنته كراهة النعم أن تكون بالعبادة ومحبة زوالها[١].

ثالثاً: كتاب "التوهم" فقد بني على أساس في الدين والتصوف معروف وهو (الخوف والرجاء) أو(الترغيب والترهيب) وقد استعمل المحاسبي توهمه أو خياله في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار، وما يلقون من سعادة وشقاء ونعيم وعذاب.

ففي المقدمة يقول عن الكتاب: " نحا فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء، كما فعل غيره، بل استعمل توهمه – وبعبارة أخرى خياله – في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار وما يلقون من : سعادة وشقاء ونعيم وعذاب، وأسلس لخياله القيادة فتخيل ما تخيل وصور ما صور فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها أو رواية رائعة لكاتب جمل منظرها

[١] المرجع السابق: ص ١٣٤-٤٢٤.

وفصل مواقفها وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئين والسامعين أكبر الأثر وأبلغه"[١].

فنجده يصف يوم القيامة فيقول:" ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، ومن بين مضحو بحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد قربه وقلقه من وهجها ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضها بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، واجتمع حر شمس ووهج أنفس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً، ثم يقول بعد ذلك فما ظنك بيوم وينادي فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عنده، كل ينادي: نفسي نفسي: شفقاً من شدة غضب ربه[٢]" [٣].

ثم نرى في الكتابة أفكاراً وردت في كتابه الرعاية، وذلك مثل رؤية الله في الآخرة حيث يقول عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه بدأ باليمين فقال:(والله ما منكم من أحد إلا سيخلو به الله عز وجل كما يخلو أحدكم بالقمر ليراه)[٤] وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم:(ليقفن أحدكم ما بين يدي الله تبارك وتعالى ليس بينه وبينه حجاب يحجبه، ولا بينه وبينه ترجمان يترجم عنه فيقول:

---

[١]المحاسبي: كتاب التوهم، ص ٦، عني بنشره أ.ج. آبري ، وقدم له الدكتور/ أحمد أمين، ط- القاهرة ١٩٣٧م

[٢]البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (١٩٧/٤)، برقم (٤٥٩٥)، تحقيق: محمد زهير، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، ط/ دار طوق النجاة.

[٣]المحاسبي: كتاب التوهم، ص ٨-١١.

[٤]أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، سنن أبي داود، كتاب السنة، باب الرؤية، (١١٢/٧)، برقم (٤٧٣٠)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ط/ دار الرسالة العالمية.

ألم أوتك مالاً؟ فيقولن: بلى، فيقول ألم أرسل إليك رسولاً؟ فيقولن: بلى، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظروا عن شماله فلا يرى إلا النار فليتق آلام النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة)[١].

ويضع المحاسبي الأولياء في منزلته تنجيهم من هول لذلك اليوم فإن أهوال يوم القيامة إنما تخفف على أولياء الله الذين توهموها في الدنيا بعقولهم فعظم خطر النجاة عندهم، فتحملوا من ثقل همومها في الدنيا على قلوبهم وحرقة خوفها على نفوسهم فخففها في القيامة بذلك عليهم مولاهم لأنه آل على نفسه ألا يجمع على أوليائه الخوف في الدنيا والآخرة.[٢]

ثم هناك رؤية الله في الجنة وهي رؤية تختلف عن مثيلتها يوم القيامة حيث يقول المحاسبي: " ونظرت إلى حجب الله وفرح فؤادك لمعرفتك إنك إذا دخلتها فإن لك فيها الزيادات والنظر إلى وجه ربك، فاجتمعت طيب أرايح الجنة وحسني بهجته منظرها وطيب نسيمها وبرد جوها" [٣]. ثم تقبل الملائكة على أولياء الله فقالوا بحسن نغماتهم، يا أولياء الرحمن إن الله ربكم يقرأكم السلام وهو يستزيركم فزوروه لينظر إليكم وتنظروا إليه، ويكلمكم وتكلموه، ويحييكم وتحيوه، ويزيدكم من فضله ورحمته، إنه ذو رحمته واسعة وفضل عظيم فلما سمعها أولياء الله وسمعتها معهم الملائكة وثبوا مسارعين إلى ركوبها حبا وشوقا إلى ربهم[٤].

وهنا نرى أثر معروف الكرخي واضحاً كل الوضوح على المحبة الإلهية، ومن الواجب ملاحظته أن المحاسبي يضع ترتيباً لهؤلاء الذين ينعمون بالاستماع إلى

---

[١]المحاسبي: كتاب التوهم: ص ٢٧-٢٨.
[٢]المحاسبي: كتاب التوهم:ص٢٩.
[٣]المصدر السابق: ص ٣٧.
[٤]المصدر السابق: ص ٥٤.

كلام حبيبهم فيقول: " فتوهم في مقعدهم الصدق الذي وعدهم مولاهم ومليكهم في القرب منه على قدر منازلهم فهم بالقرب منه على قدر مراتبهم: فالمحبوبون لهم أقربهم إليهم قرباً إذا كانوا له في الدنيا أشد حباً، وأقرب إلى عرشه منهم القائمون بحجته عند خلقه، ثم الأنبياء عليهم السلام، ثم الصديقون على قدر ذلك في القرب من العزيز الرحيم، فأعظم بهم مزور، وجل فتكبر من مزور"[١].

رابعاً: أما عن رسالته في "المحبة" التي بقي منها شذرات حفظها لنا أبو نعيم الاصبهاني، فقد تحدث المحاسبي عن المحبة المتبادلة بين العبد والرب، حين يصف لنا الصلة بين المحبة والشوق ونور كل منهما في القلب، وعما يطفئ هذا النور بعد إسراجه، وما يترتب على ذلك الانطفاء من آثار، فيقول رداً على سؤال سأله بعض أصدقائه عن المحبة الأصلية:" هي حب الإيمان، وذلك أن الله تعالى قد شهد للمؤمنين بالحب فقال:(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)[البقرة:١٦٥] فنور الشوق من نور الحب، وزيادته من حب الوداد، وإنما يهيج الشوق في القلب من نور الوداد، فإذا أسرج الله ذلك السراب في قلب عبد من عباده لم يتوهج في فجاج القلب إلا استضاء به، وليس يطفئ ذلك السراج إلا النظر إلى الأعمال بعين الأمان، فإذا أمن على العمل من عدوه لم يجد لإظهاره وحشة السلب فيحل العجب وتشرد النفس مع الدعوي "[٢].

وهنا نرى نفس الأفكار الواردة في كتاب الرعاية وتحل العقوبات من المولى، وحقيق على من أودعه الله وديعة من حبه في دفع عنان نفسه إلى سلطان الأمان

---

[١]المصدر السابق: ص ٥٧.
[٢]أبو نعيم: الحلية، (٨٧/١٠).

يسرع به السلب إلى الافتقاد.

وليس من شك في أننا ندرك عند المحاسبي بعضا من أفكار طائفة "الملامتية"[١] التي من أهم أصولها عدم الاطمئنان إلى الأعمال مهما عظمت وبلغت من الصلاح حتى لا يحدث العجب في النفس نتيجة للشعور بالأمان وحسن الظن بالأعمال.

ولا يفارق المحاسبي بين الحب والشوق فالحب هو الشوق، لأن المحب الصادق لا يشتاق إلا إلى حبيب، وخاصة إذا كان الشوق فرعاً من فروع الحب الأصلي الذي يعرف بشواهده على أبدان المحبين، وهذا ما حدث للسري السقطي كما يعرف أيضا في ألفاظهم، ويعرف المحب بأخلاقه وكثرته الفوائد التي يجريها الله على لسانه بحسن الدلالة عليه[٢]. وقد تحقق هذا للمحاسبي نفسه فقد قيل إنه إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق فكان يمتنع منه، جعله الله ذلك حافظ له[٣].

وبهذه المناسبة نجد تعليقاً طريفاً لأبي العباس المرسي على هذه الحكاية وذلك عندما سأله السائل عن أبى بكر الصديق حين قدم إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته في قلبه فتقيأه، ولم يكن له عرق ليتحرك عليه إذا قدم له طعام فيه شبهة، والصديق أولى بكل مزية من سائر الأمة، وقد وزن به أمة فرجحها.

---

[١]هي طريقة من طرق الصوفية وقد سُمّو بالملامتية لأَن طريقتهم تقوم على ملامة النفس، أي: عَذْلُها ولَّومُها في كل الأحوال، وعاقبوها بالإكثار من العبادات وأنواع القُرُبات من الله سرّاً، لأنها الطريقة المثلى في رأيهم؛ وذلك لتأديب النفس والإعراض عن العجب والرُّعونة. عفيفي: أبو العلا عفيفي: الملامتية والصوفية واهل الفتوي، ص ٨، ط/ دار أحياء الكتب العربية عيسى البابلي الحلبي وشركاه سنة ١٩٤٥م.

[٢]أبو نعيم: الحلية، (٧٩/١)

[٣]العروسي: نتائج الأفكار، (٩٥/١)

فقال أبو العباس المرسي: " هو الصديق -رضي الله- عنه كالوكيل المفوض إليه، مطهر من البقايا فلا يحتاج إلى إشارة، والحارث بقيت عليه البقايا فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل في شيء بنفسه وهواه، وقد تناول أبو بكر -رضي الله عنه- من ذلك اللبن حتى يتكلف طرحه بعد شربه، فيثيبه الله على ذلك، وأيضا يجعله قدوة للعبادة فيقتضي به فهو من حسن الاختيار، حتى يفتح به وبأمثاله السبيل للعباد، كما أن من حسن اختيار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهى عنها حتى يتوب من العمل، فيكون قدوة للتائبين"[1].

وعلامة محبة الله للعبد عند المحاسبي: هي أن يتولى الله سياسة هومه فيكون في جميع أموره هو المختار له فأخلاقه على السماحة، وجوارحه على الموافقة يصرخ به ويحثه بالتهديد والزجر، والدليل على ذلك خبر النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أحب الله عبداً جعل له وعظاً من نفسه، وزاجر من قلبه يأمره وينهاه)[2].

ومن علامة المحبة أيضا أداء الفرائض بمسارعة من القلب والجوارح والمحافظة عليها، ثم بعد ذلك كثرة النوافل كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت

---

[1] حسن السندوبي: أبو العباس المرسي، ص ٧٠

[2] الدَّيْلَمي: أبو منصور شهردار بن شيرويه، مسند الفردوس، (١٣٤/٥)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م، جمعية دار البر، دبي - الإمارات العربية المتحدة.

وأنا أكره مساءته)[1].

وهذا القول إنما يتصل اتصالا وثيقاً بنظرة أساسية عند المحاسبي وهي الجمع بين الحقيقة والشريعة فهو القائل: " من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة"[2].

خامساً: رسالة المسترشدين[3]: وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبي الارشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوي الألباب العالمين بالله وبأمره ومنهاج ذوي الألباب -كما تحدده الرسالة- إنما هو رعايته صدور الشريعة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع المهتدون من الأئمة، وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه عباده وقال جل وعز(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الانعام:١٥٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ)[4]. والرسالة على العموم إنما هي إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج فهي تتحدث عن التوبة، والخطرات، والخوف من الله، والصبر، والرضا، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله السالكين إليه.

هذه بعض كتب الامام المحاسبي التي أردنا الكلام عنها ببعض من الاختصار

---

[1] البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، (١٠٥/٨)، برقم (٦٥٠٢)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ، دار طوق النجاة ،أبو نعيم: الحلية، (٩٩/١)

[2] القشيري: الرسالة، ص ١٢. السلمي: طبقات الصوفية، ص ٩٠.

[3] المحاسبي: رسالة المسترشدين، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة: الثانية،١٩٧١م، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب – سوريا.

[4] الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة، سنن الترمذي، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، (٣٤١/٤) برقم (٢٦٧٦).

وعن منهجه وطريقته في تأليفها، وهناك كتب أخري ما بين مخطوطة ومطبوعة، فمن الكتب المخطوطة:

١- آداب النفوس: وهو في مكتبة جار الله بالأستانة برقم ١١٠١، ومن هذه النسخة نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٦٤ تصوف. وفي كوبريللي بالأستانة برقم ٧٢٥.

٢- أحكام التوبة: في دار الكتب المصرية ٣١٩ تصوف عن مكتبة لندن.

٣- رسالة التصوف: بلدية الإسكندرية رقم ١٣٢١ - ١ ج.

٤- التنبية على أعمال القلوب والجوارح: دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن نسخة - جار الله بالأستانة.

٥- الخصال العشرة التي جربها أهل المحاسبة: دار الكتب المصرية رقم ٤١٨٤ تصوف عن نسخة مكتبة برلين.

٦- الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجوا بأغنياء الصحابة: كوبريللي بالأستانة رقم ٣٦٠٦ — ٢٠.

٧- شرح المعرفة وبذل النصيحة: كوبريللي بالأستانة رقم ١٦٠١، شهيد على رقم ١٣٤٥، والأزهرية بمصر رقم ٤١٣٠٩، ١٢٠٨ تصوف، ودار الكتب المصرية ٤٠٨٤ تصوف عن برلين.

٨- فصل من كتاب العظمة : دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ تصوف عن جار الله بالأستانة.

٩- القصد والرجوع إلى الله: جار الله بالأستانة ١٧٢٨، شهيد على ٣٣١٩ .

١٠-محاسبة النفوس: برلين ٢٨١٤، المتحف البريطاني بلندن ١٢٤٤.

١١-مختصر المعاني: البنغال ١١٦٧.

١٢-المراقبة والمحاسبة: مكتبة سوهاج ١٣٦ تصوف.

١٣-معاتبة النفوس: الأزهرية بمصر ١٠٣٩ مجاميع تصوف.

١٤-النصيحة للطالبين: شهيد على ٣٣١٩.

١٥-فهم الصلاة: دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن جار الله[١].

أما الكتب المطبوعة بالإضافة لما تعرض له فمنها:

١- بدء من أناب إلى الله: نشره المستشرق ريتر سنة ١٩٣٥ م.

٢- الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين: نشره الأب أغناطيوس عبده خليفة بمجلة المشرق عام ١٩٥٤، ١٩٥٥م

٣- المسائل في أعمال القلوب والجوارح: وهو مكون من: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، والمسائل في الزهد وغيره، وكتاب المكاسب، وكتاب العقل، حققه عبد القادر أحمد عطا ونشره عام ١٩٦٩م.

٤- فهم القرآن: حققه حسن القوتلي ونشره عام ١٩٦٨ م.

٥- كتاب العلم: حققه محمد العابد مزالي ونشر في تونس عام ١٩٧٥ م[٢].

---

[١] المحاسبي: الوصايا، مقدمة المحقق: ص ٣٨-٣٩.

[٢] المرجع السابق: ص ٣٩.

المبحث الثالث

بين الحارث المحاسبي وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)

قصة الإمام أحمد بن حنبل مع الحارث المحاسبي: ذكرت من طرق متشابهة، ولما رأيت رمي الشيخ المحاسبي بالبدعة وذمه إنما كثر الاستشهاد فيه بها، تفحصت رواياتها، غير أني وجدت فيها ألفاظاً وعبارات دقيقة لا يجوز إهمالها فاستحسنت أن يُطلع عليها كما هي قبل أن نعود لاحقا لمناقشتها، وهذه الخصومة عبارة عن شقين: الشق الأول: فيها خصومة أحمد حول كلام المحاسبي في علم الكلام، والثاني: حول المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج لها بالآي والحديث، وسوف نعرض فيما يلي لنصوص العلماء كاملة ثم نقوم بمناقشتها:

-روى تاج الدين السبكي عن الحافظ الكبير أبي عبد الله الحاكم بسنده المتصل إلى إسماعيل بن إسحاق السراج، قال إسماعيل: "قال لي أحمد بن حنبل: بلغني أن الحارث هذا يكثر الكون عندك (يكثر من الحضور في بيتك) فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فأستمع كلامه، فقصدت الحارث وسألته أن يحضر تلك الليلة وأن يحضر أصحابه، فقال: فيهم كثرة، فلا تزدهم على الكسب (الخبز) والتمر، فأتيت أبا عبد الله (ابن حنبل) فأعلمته فحضر إلى غرفة واجتهد في ورده، وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا، ثم صلوا العتمة (العشاء) ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدي الحارث لا ينطقون إلى قريب نصف الليل. ثم ابتدأ رجل منهم فسأل مسألة، فأخذ الحارث في الكلام، وأصحابه يستمعون كأن على رؤوسهم الطير فمنهم من يبكي، ومنهم من يحن ومنهم من يزعق وهو في كلامه، فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله فقال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل،

ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم ثم قام فخرج ". وفي رواية أخرى أن أحمد قال: لا أنكر من هذا شيئا"[١].

كذلك "روى الخطيب البغدادي بسند صحيح أن الإمام أحمد سمع كلام المحاسبي فقال لبعض أصحابه: ما سمعت في الحقائق مثل كلام هذا الرجل ولا أرى لك صحبته"[٢].

-وروى الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية:" وقال إسماعيل بن إسحاق السراج قال لي أحمد بن حنبل: هل تستطيع أن تريني الحارث المحاسبي إذا جاء منزلك ؟ فقلت: نعم. وفرحت بذلك، ثم ذهبت إلى الحارث فقلت له: إني أحب أن تحضر الليلة عندي، أنت وأصحابك. فقال: إنهم كثير فأحضر لهم التمر والكسب. فلما كان بين العشاءين جاؤوا وكان الإمام أحمد قد سبقهم فجلس في غرفة بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلوا بعدها شيئاً بل جاؤوا بين الحارث سكوتاً مطرقي الرؤوس كأنما على رؤوسهم الطير حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأله رجل مسألة فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ فجعل هذا يبكي وهذا يئن وهذا يزعق. قال : فصعدت إلى الإمام أحمد إلى الغرفة فإذا هو يبكي حتى كاد يغشى عليه ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح فلما أرادوا الانصراف قلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله؟ فقال: ما رأيت أحدا يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل وما رأيت مثل هؤلاء، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم"[٣].

---

[١] السبكي: الطبقات، (١/١٧٣-١٧٤)

[٢] البغدادي: تاريخ بغداد، (٨/٢١٣)

[٣] ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، (١٠/٣٢٩)، تحقيق: علي شيري، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

-وروي ابن الجوزي أن الإمام أحمد بن حنبل قال عن الحارث المحاسبي: "جالسه المغازلي ويعقوب وفلان فأخرجهم إلى رأي جهم هلكوا بسببه. فقيل له: يا أبا عبد الله يروي الحديث وهو ساكن خاشع من قصته، فغضب الإمام أحمد وجعل يحكي ولا يعدل خشوعه ولينه ويقول: لا تغتروا بنكس رأسه فإنه رجل سوء، لا يعرفه إلا من قد خبره، لا تكلمه ولا كرامة له"[١].

-قال ابن حجر في تهذيب التهذيب" :وقال أبو القاسم النصر أباذي: "بلغني أن الحارث تكلم في شيء من الكلام، فهجره أحمد فاختفى، فلما مات لم يصل عليه الا أربعة نفر"[٢].

-قال الخطيب في تاريخ بغداد: "وكان الإمام أحمد بن حنبل يكره للحارث نظره في الكلام، وتصانيف الكتب فيه، ويصد الناس عنه" ، وقال: " أنبأنا إسماعيل بن أحمد الحيري أنبأنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي قال سمعت أبا القاسم النصر أباذي يقول: بلغني أن الحارث المحاسبي تكلم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل فاختفى في دار ببغداد ومات فيها، ولم يصل عليه إلا أربعة نفر، ومات سنة ثلاث وأربعين ومائتين"[٣].

-أورد د .عبد القادر عطا في مقدمة كتاب الوصايا: "قال الحسين بن عبد الله الخرقي: سأل المروذي عما أنكر أبو عبد الله "ابن حنبل" على المحاسبي فقال أنا أتوب مما أنكر علي أبو عبد الله. فقال (أي ابن حنبل): "ليس لحارث توبة،

[١]ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، تلبيس إبليس، ص ١٦٣، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان
[٢]ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي، تهذيب التهذيب :(٢/١١٦)، ت/ خليل مأمون شيحا، عمر السلامي، علي بن مسعود، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، دار المعرفة – بيروت.
[٣]البغدادي: تاريخ بغداد، (٢١٧/٨).

يشهدون عليه بالشيء ويجحد، إنما التوبة لمن اعترف، ثم قال احذروا عن حارث"[١].

-وقال أبو بكر بن حماد: "إن الحارث مر به ومعه أبو حفص الخصاف، قال فقلت له: يا أبا عبد الله تقول إن الله يتكلم بصوت؟ فقال لأبي حفص أجبه. فقال أبو حفص: متى قلت: بصوت ، احتجت أن تقول بكذا وكذا. فقال للحارث: فماذا تقول أنت؟ قال: قد أجابك أبو حفص. قال أبو عبد الله بن حنبل: أنا من ذلك اليوم أحذر عن حارث"[٢].

هذه بعض النصوص التي وردت فيما حدث بين الامامين المحاسبي وأحمد بن حنبل، وهذا بعض من كثير.

التعليق على هذه الأقوال ومناقشاتها:

التاريخ عموماً والتاريخ الإسلامي منه، يروي لنا داء في الإنسان قديماً جديداً، أن يستظهر الرجل رأي أحد العلماء الكبار ليهدم عالما آخر، لكن لله الحمد والمنة فقد اختص المسلمون عن أهل الأرض قاطبة بمنهج في علوم الرواية وإسناد الأقوال إلى أهلها لم يعرفه قوم ولا حضارة أخرى، لذلك فإنني لن أدافع عن المحاسبي، بل أترك الأمر لعلماء الرجال والجرح والتعديل:

-قال الذهبي في تذكرته[٣] بعد رواية القصة: وهذه القصة صحيحة السند لا تقع على قلبي، وما كل ما صح سنده صح متنه، وإنما نفر قلب الذهبي مما فيها

[١]المحاسبي: الوصايا، مقدمة التحقيق، ص ١٨.
[٢]المرجع السابق: ص ١٩
[٣]الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، تذكرة الحفاظ، (١١٤/٢)، وضع حواشيه: زكريا عميرات، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨ م، ط/دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان

من تناقض لا يليق بعقل كبير مثل عقل الإمام أحمد، وأدخل في إنكار الذهبي تناقض أشد في رواية المروزي عن أحمد أنه قال: "ليس لحارث توبة ... إنما التوبة لمن اعترف " ففيها خلل لا يصح وتناقضات مريبة:

أ- فالمروزي نفسه هو الذي روى في مسائله عن أحمد أنه لورعه كان يتوقف طويلا في تجريح راوٍ من الرواة طولاً قد يبلغ العام والعامين، لا بل يسارع في إغلاق باب التوبة على مسلم قبل أن يغرغر، وهذه مخالفة صريحة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة، لا تصح بل مستحيلة في عرف أحمد، بل يكاد المرء يجزم على أنها مكذوبة عليه.

ب- أما قوله إن "التوبة لمن اعترف"، فقول غريب عن مسلك أحمد أيضا: فالتوبة بين العبد وربه ولم يشترط أحد- فضلاً عن أن يكون الإمام أحمد- في صحتها الاعتراف العلني للناس، لا بل ذاك هو الفضيحة وهتك الستر الذي نهى عنه الإسلام أشد النهي، ومن هنا يتأكد الشك في أن هذه الرواية إنما هي بطلان وتزييف على الإمام أحمد.

-قال البيهقي[1] معلقا على الحكاية :"يحتمل أنه كره صحبتهم؛ لأن الحارث بن أسد وإن كان زاهداً فقد كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك، أو كره له صحبتهم من أجل أنه لا يطيق له طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع ".

-وزاد الحافظ ابن كثير -رحمه الله -معقباً على تعقيب البيهقي الذي ساقه ومعللاً قول الإمام أحمد" :قلت: بل إنما كره ذلك؛ لأن في كلامهم من التقشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع، ومن التدقيق والمحاسبة الدقيقة ما لم يأت بها

[1] ابن كثير: البداية والنهاية، (٣٣٠/١٠).

أمر، ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال: "هذه بدعة"، ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب: عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث، ودع عنك هذا فإنه بدعة"[1].

-قال ابن حجر معلقاً على القصة بعدما رواها في تهذيب التهذيب: "قلت إنما نهاه عن صحبتهم؛ لعلمه بقصوره عن مقامهم فإنه في مقام ضيق لا يسلكه أن لا يوفيه حقه"[2].

-ذكر الشيخ عبد الحليم محمود أن أبا حامد الغزالي -رحمه الله -ذكر هذه المسألة في المنقذ من الضلال وحسم الخلاف فيها فقال: "لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي - رحمهما الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة.

فقال الحارث:" الرد على البدعة فرض"، فقال أحمد: "نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق فهمه بفهمه ولم يلتفت إلى الجوانب، أو ينظر إلى الجوانب ولا يفهم كنهه؟"

وما ذكره أحمد، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر، أما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية، ولقد أصاب الإمام (يقصد المحاسبي) التوفيق في رأيه، ولا شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم، وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة[3].

-والطاعنون بعد لا يوردون ما قاله ابن السبكي في طبقات الشافعية، حيث قال- رحمه الله - معلقاً: "قلت: تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة، واعلم أن الإمام أحمد بن حنبل إنما لم ير لهذا الرجل صحبتهم لقصورهم عن مقامه، فإنهم

[1] المرجع السابق، (٣٣١/١٠).
[2]ابن حجر: تهذيب التهذيب :(٢/١١٦)،
[3]الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١١٧.

في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد، فيخاف على سالكه، وإلا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر ولكل رأي واجتهاد، حشرنا الله معهم أجمعين في زمرة سيد المرسلين – صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم"[١].

وهذا الكلام أورده ابن كثير بعد ذكر القصة، لكن خصوم المحاسبي لا تكاد تجد فيهم له ذاكراً، لما فيه من حسن التعليق والإنصاف للمحاسبي.

وإن شئت بسطاً في كلام ابن السبكي، فهو يتساءل هل أطلق أحمد – رحمه الله- كلامه على نحو " ولا أرى لأحد أن يصاحبه" أم تراه متعلقا بشخص سائله فقط؟ فإن كان الأول؛ فهل عجز أحمد-رحمه الله- أن يدخل على أصحاب الحارث فيعظهم ويصدهم عما هم فيه ويحذرهم من المحاسبي وأمامه، وقد كان معهم في بيت واحد لا يفصلهم إلا أمتار؟ أم أنه كان لا يرى الشدة في الزهد تصلح لابن السراج نفسه (محدثه) لأنه كان أعرف به وبحاله، ففقه أنه لا يطيق ذلك، ولكن لم ينف أن غيره لا يطيقه وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- يأذن للكهل في التقبيل والضم وهو صائم، ولا يأذن فيه للشاب الذي علم أنه لا يتمالك نفسه، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يجيب سؤالاً واحداً بإجابات مختلفة حسب معرفته بالسائلين وأحوالهم ونفسياتهم واستعداداتهم، وهذا معنى كلامه: "فإنهم في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد ، فيخاف على سالكه "، وكذلك رأى البيهقي في قوله: "أو كره له صحبتهم من أنه لا يطيق له طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع."

-يفصل ابن حجر في تعليقه على القصة في تهذيب التهذيب بما لا يدع مجالا لشك: قلت: إنما نهاه عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم فإنهم في

[١] السبكي: طبقات الشافعية، (٣٩/٢).

مقام ضيق لا يسلكه كل واحد ويخاف على من يسلكه أن لا يوفيه حقه.

اللافت للنظر أن الذين أوردوا هذا وتكلموا عنه لا يذكرون شيئا من هذا كله، بل أقل مثال في الحيف عند الطاعنين في المحاسبي أنهم لا يذكرون تماماً أن الإمام أحمد أثنى على حال الحارث كما حذر محدثه منه على وجه آخر، وإن كان ولا بد من الإنصاف، وجب أن نعتبر مدحه ونفصل فيه ونذكر علله كما اعتبرنا ذمه وفصلنا فيه وذكرنا علله.

فتأمل معي- يرحمك الله- هذا النص تفهم ما فهمه ابن السبكي والبيهقي وابن حجر، هم بعد من ابن حنبل والمحاسبي أقرب وهم لهم منا أفهم وبهم منا أعلم.

أما وقد عاينا ورأينا طرق الخصوم في تشويش الفهوم، وكشفنا تلبيس بعض المتأخرين وتدليسهم لنصر آرائهم ومذاهبهم، فلنتق في أبواب العلم مثل هذه المزالق، حتى ينجلي لنا الفهم اللائق، فننصف ونعدل ولا ننعق مع كل ناعق.

وأضيف هنا ملاحظة ملفتة للنظر تعبر تعبيراً واضحاً عن أثر كراهية أحمد بن حنبل مصاحبة الحارث المحاسبي، فقد قيل إن المشيعين لجنازة الحارث لم يتجاوزوا أربعة أشخاص وذلك بعد أن هجره الإمام أحمد بن حنبل، فقد اختفى الحارث المحاسبي في دار ببغداد ومات فيها، ولكن هل كان هذا تنفيذاً لوصيته بقلة المشيعين، أم أن الرأي العام تأثر بخصومة الإمام أحمد له، خاصة وأن هذا العصر اتسم بتقدير العلماء في حياتهم وبعد مماتهم، وهذا هو ما حدث بالفعل لكل من معروف الكرخي وبشير الحافي الذي حشد الناس لجنازته.

وهكذا نرى الإمام أحمد وهو الفقيه كان يميل إلى الصالحين والفقراء منهم خاصة، وحكاياته مع معروف الكرخي وبشر الحافي تؤيد ذلك وتؤكده ولذلك

فإني أعتبر خصومته للحارث المحاسبي أملاها كلامه في علم الكلام عامة، لا بالنسبة لمشكلة خلق القرآن التي ينكرها المحاسبي مثله في ذلك مثل ابن حنبل، وهي ليست خصومة مع الصوفية.

بقيت نقطة أخيرة في الصلة بينهما أحب أن أنبه إليها وهي أن الأستاذ المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفي قد قال نقلاً عن ابن تيمية أن ابن حنبل كان يسأل الحارث في بعض المسائل ويقول: " ما تقول فيها يا صوفي؟"[١]، ولكن هذه العبارة قد أسندت عن أبي حمزة الصوفي، محمد بن إبراهيم، وقد جالس أحمد بن حنبل وبشر الحافي:" كان الإمام أحمد بن حنبل يسألني في مجلسه عن مسائل ويقول: ما تقول فيها يا صوفي؟"[٢].

فالخلاصة:

- أنه لم يثبت أبداً أن أحمد جرح المحاسبي صراحة، ولا أن المحاسبي رد عليه ولا على من زعم أن أحمد جرحه.
- وأن الإمامين أحمد والحارث كانا متعاصرين، وخلافهما لم يفسد للود قضية وإنما كان حمل الإمام أحمد على كتب الحارث الكلامية بسبب موقفه المشهور من الكلام عامة وكرهه له فقل تداوله - فيما يبدو- واختفت شيئا فشيئا.
- وحملة أحمد لم تكن على رأي المحاسبي - رحمه الله- وعقيدته ولو كان ذاك ما كان ابن حنبل يفوته ويسكت عنه، ونعلم أن أحمد كان شديداً في الحق

---

[١] د. عفيفي، أبو العلا، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ص ٢٨، الطبعة الاولي سنة ١٩٦٨م، ط/ دار الشعب – بيروت.

[٢] البغدادي، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، (٣٩٠/١)، القشيري: الرسالة القشيرية، ص ٣٤. الشعراني: الطبقات الكبرى، (٨٥/١).

لا يتزحزح، ورأي المحاسبي – رحمه الله – في المسائل الكلامية معروف، وهو الرأي السلفي– وهذا أمر يتفق فيه الإمامان – بل إن المحاسبي كان شديد الإنكار على المعتزلة حيث ألف في الرد عليهم ما لم يؤلف أحمد وكذلك على الصوفية، ورأيه هذا ذكره غير ما واحد ممن ألفوا في الفرق والملل كالشهرستاني وغيره، أما إنكار أحمد فكان على الأسلوب والطريقة التي كان ينصر المحاسبي بها الدين ولا ريب أن ما قام به المحاسبي في نفس الوقت هو انتصار لأحمد– رضي الله عنهما– وتقوية له وعون على بلوغ غايته ، وانتصار للمدرسة السنية وللإسلام في عصر اشتد فيه الهجوم عليه من عقر داره.

المبحث الرابع

منهج الحارث المحاسبي في التصوف

ننتقل الآن إلى منهج المحاسبي في التصوف وهو منهج منطقي تحليلي يظهر فيه إدراكه للصلة بين الأسباب ومسبباتها في تطور الحياة الروحية في الإسلام عامة ومدرسة بغداد خاصة، ويتضح ذلك كله من تحليله لأسس العبادة حيث يقول: " أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد، ومعرفة أصل الوعد والوعيد عظم الجزاء، وأصل ذلك الفكر والعبرة"[١].

وأصدق بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت في الرسول صلى الله عليه وسلم:

ما حملت من ناقة فوق رحلها   اعفي وأوفي ذمة من محمدي[٢]

ويضيف السبكي إلى قوله: وهذا حق، ونظير هذا البيت في الصدق قول حسان أيضا:

وما فقد الماضون مثل محمد   ولا مثله حتى القيامة يفقد

وقوله صلى الله عليه وسلم: " أصدق كلمة قاله لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل"[٣].

وهذا الورع الذي هو أصل الطاعة، جعل المحاسبي لا يأخذ من ميراث أبيه شيئاً، فقد قيل أنه ورث من أبيه سبعين ألف درهماً فلم يأخذ منها شيئا، لأن أباه كان يقول

---

[١] المحاسبي: الرعاية، ص ١٦٥.
[٢] أبو نعيم: الحلية، (٦٧/١٠)
[٣] السبكي: طبقات الشافعية، (٤١/٢). وهذا الورع الذي هو أصله طاعة

بالقدر أي كان من القدرية القائلين بأنكار القدرالذي يجب الإيمان به، حيث جعل الأفعال لفاعلين، وزعموا إن الله خلق الخير، وأن العبد يخلق الشر، فأثبتوا لأنفسهم قدرة وفعلاً، فسموا لذلك قدرية، فرأى من الورع ألا يأخذ شيئاً من ميراث أبيه لاختلاف العلماء في تكفير القدرية حين إذن قال المحاسبي:" صحة الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:(لا يتوارث أهل ملتين شيئا)[١]. بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك، فقد روي المحاسبي بباب الطلاق في وسط الطريق متعلقاً بأبيه والناس قد اجتمعوا عليه يقول له: طلق أمي فإنك على دين وهي على غيره"[٢].

وقد وصلت محبة المحاسبي لله وشدة تعلقه إلى درجة أنه كان يرى كل شيء ما خلا الله باطلاً فقد قال الجنيد تلميذ المحاسبي: "كنت كثيراً أقول للحارث قلتي أنسي، فيقول: كم تقول أنسي وعزلتي؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنساً، ولو أن نصف الخلق الأخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم"[٣] بل قد أنشد بين يدي الحارث المحاسبي هذه الأبيات فقال:

أنا في الــغربة أبكي ... ما بكت عين غريب

لم أكن يوم خـروجي ... من بلادي بمصيب

عجبا لي، ولــتركي ... وطـناً فيه حبيبي!

فقام يتواجد ويبكي حتى أبكى من حضره[٤] وحبيبه هنا هو الله عز وجل، حتى لقد قال عن المحبة:

---

[١] العروسي: نتائج الأفكار، (٩٥/١).
[٢] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد،(٢١٤/٨).
[٣] ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة: (٢٠٧/٢)، تحقيق: أحمد بن علي، الطبعة الاولي: ٢٠٠٠م، دار الحديث، القاهرة، مصر.
[٤] السلمي: طبقات الصوفية، ص ٩٠.

" هي ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في الجنة"[١].

فالمحاسبي قد وضع نصب ناظريه غاية عظيمة، أجمع أمره على أن تكون وسيلته في مقصده ذاك الذي هو في ذلك بث العلم الصحيح متوسلاً في ذلك الخطب والمواعظ والكتابة والتأليف على نحو جديد ومميز، أسلوبا ومضموناً بما يجعله أكثر تأثيراً، على أن الملاحظ أن عصره كان عصر العلماء، وأن الاهتمام بالعلم لم يكن ناقصاً، - ويدور في الذهن الآن السؤال الذي يسأل عنه كل باحث في أي موضوع يكتب فيه ما الجديد؟ - فما الجديد الذي أتى به المحاسبي رحمه الله؟

لمس المحاسبي - رحمه الله - في عصره القصور في جانبين مهمين لعلهما:

أولاً: التركيز على الرواية والسند لتنقية علم الحديث من الشوائب والموضوعات، وبالتالي الاهتمام الكبير ببعض هذه العلوم كالفقه والحديث، وبصورة أقل على ما يتعلق بالقلب والرقائق والزهد التي تعالج هذه الأمراض الجديدة التي عصفت بالمسلمين.

ثانياً: حتى وإن كان الاهتمام بهذه الأخيرة، فقد وقع القصور في توصيلها على النحو الذي تحقق به ثمارها المرجوة في القلب والنفس، فقد رأى أن الوعاظ والقصاص، بل وحتى العلماء لم يعودوا يبلغون هذه الغاية بسهولة كما كان سابقهم، ومرد ذلك إلى عدم مواكبة أساليبهم تغير أحوال المخاطبين وظهور عوائق وصعوبات لم تكن فيمن قبلهم، ممن فشو الاهتمام بالدنيا وزخرفها، وكثرة الملهيات، وتنوع الفرق والمذاهب.

---

[١] القشيري: الرسالة، ص ١٤٦.

فكان لزاماً أن يكون هذا الأسلوب الجديد الذي اجتهد فيه متميزاً عن غيره بما يجعله كفيلاً ببلوغ الهدف المرسوم والغاية المنشودة، وفعلاً فقد كان للمحاسبي طرائق وأساليب عرف بها جعلت منه وله مدرسة قائمة بذاتها، وقد حاولنا ضبط خصائص هذا بما توفر من الوقت والجهد في هذا البحث القصير:

طريقته في التأليف والتعليم:

أما عن طريقته في التأليف فعجيبة ومشوقة، يذكر تلميذه الجنيد البغدادي أنه كان يطلب منه أن يخرج معه إلى الصحراء ، ثم يطلب منه أن يسأله عما يدور في نفسه فيجيبه المحاسبي : " أن اسألني عما يدور في نفسك " ، فتنثال الأسئلة على الجنيد ويجيب عليها المحاسبي لوقته، ثم إن السؤال ليفضي إلى سؤال آخر يقتضي جواباً، قال : ثم يمضي إلى بيته فيعملها كتابا"، وهذه أشد وقعاً وتأثيراً في القلوب فهي تعبير عما يدور في الخواطر غالباً، وهي إجابة عن التساؤلات العميقة، ومن ثم فهي واقعية تطبيقية بعيدة عن التجريد والتنظير والترف الفكري، وهذه طريقة تذكرنا بطريقة سقراط، غير أن ما في بعض كتبه من العناية والترتيب والتناسق والتسلسل - كما في الرعاية - يبعد الظن أنها مجرد استجابات وقتية لأسئلة لا شك أنه سئلها، ولا شك أيضا أنه بعد السؤال والإجابة يعمل الترتيب والتنسيق ليعظم النفع بتسلسل الأفكار، ويدعم ذلك قول الجنيد: ثم يمضي إلى بيته فيعملها كتابا.

ولا عجب فهذه الطريقة الحوارية هي التي مازلنا اليوم نوقن بفعاليتها وتمدحها، وهي التي مازلنا نسعى إلى التزامها في مناهجنا التعليمية في مختلف المراحل والأطوار، لنتخلص من الطريقة السردية الجافة، ولله در المحاسبي - رحمه الله - كان منهجه متفطن إليه في زمنه، وكان منفرداً به عن أقرانه.

أسلوبه في الكتابة والتفكير والحكم على الاشياء:

المحاسبي – رحمه الله – في الكتابة دقيق الألفاظ، متين العبارات، ولا شك أن هذا حاصل له من كونه "رجل الأصول"، أي أصول الديانات كما وصفه البغدادي وابن خلكان، فقد اكتسب من التأليف في علم الكلام والتفكير في مسائله التي تتطلب جهداً كبيراً عقلية منظمة ضابطة أخرجته من فوضى التفاصيل المشتتة إلى الأحكام العامة الكلية، فالأحكام عنده تصدر عن تفكير فيه تروي وإحاطة عميقة بالموضوع المدروس، لذلك كانت أحكامه أساسية، كانت كتبه أصولاً لمن ألف بعده، وكانت أقواله حكماً ويكفينا في هذا الباب مثال واحد حسم فيه المحاسبي جدلاً طويلاً – دار وما زال يدور حول ما يجوز للمؤمن سماعه ، فقال : " ما لا يؤذن لك بقوله فلا يؤذن لك أيضاً بسماعه"[1].

فقد رجع بالقضية الجزئية إلى ما هو أشمل منها، فشمل في بلاغة وغير ما إسهاب ولا إطناب: الغيبة والنميمة ومحرم القول والغناء... وما نحا منحاها، وقد ذكرنا آنفاً طرفاً من أقواله شاهدة على هذه العبقرية الفريدة، ومن اساليبه في التفكير والكتابة:

أ- أسلوب التحليل والتخويف النفسي:

كان المحاسبي – رحمه الله – أول من أنشأ ونظم ما يمكن أن نطلق عليه ب "علاج النفس" أو "العلاج النفسي للشر" " أو ما يسمى اليوم اصطلاحاً "علم التحليل النفسي "، المحاسبي كان يحاسب نفسه كثيراً حتى أطلقوا على أتباعه " الطريقة المحاسبية"، ولا شك أن المعرفة بخبايا النفس لا تأتي إلا من محاسبتها وتتبع خطراتها وحركاتها وسكناتها والعلم برغباتها وشهواتها ومكارهها.

---

[1] المحاسبي: الرعاية، ص ١٦٥.

وقد ذكر د/عبد المنعم الحفني: "أن المحاسبة التي يقول بها المحاسبي – رحمه الله – وينسب إليها هي محور تفكيره الصوفي ولب مذهبه في التصوف، وبين رأي المحاسبي الفذ الذي مفاده أن ولي الإنسان من نفسه طباعه الحسنة وعدوه طباعه السيئة، وأنه بذلك محل صراع نفساني بين الاثنين، وهذه نظرية الصراع النفسي التي لم يقل بها الأوروبيون إلا بعد ألف سنة"[١].

ويعرف المحاسبي الإنسان الأخلاقي المتدين بأنه هو الذي يستخدم أولياءه ضد أعدائه، فيقاتل الغضب بالحلم، والغفلة بالتفكير والسهو بالتنبيه ... وهذا الكلام يعده د/عبد المنعم الحفني أفضل ما قيل في العالم قاطبة، وعند كل الفلاسفة، في هذا الشأن[٢].

ويصف المستشرق ماسينيون أسلوبه بأنه "إعجاز" نادر "، ويقول عنه الأستاذ ريتر: " أن المحاسبي في الواقع المنظم في الذات في إطار التقوى الإسلامية[٣].

ب– أسلوب التخيل عند المحاسبي:

ويبدو هذا في أكثر من كتاب؛ لكنه كان أكثر حضوراً في "كتاب التوهم" الذي طبع لأول مرة في القاهرة عام ١٩٧٣ م ، بإشراف المستشرق أربري، ووصفه أحمد أمين في المقدمة التي وضعها له في قوله: "نحا فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء كما فعل غيره، بل استعمل توهمه – وبعبارة أخرى خياله – في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار وما يلقون من سعادة وشقاء ونعيم وعذاب، وأسس لخياله القيادة

[١] الحفني: عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية (أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية)، ص ٣٢٥، الطبعة الأولي عام ١٩٩٢م، ط/ دار الرشد

[٢] المرجع السابق: ص ٣٢٥.

[٣] المرجع السابق: ص٣٢٦.

فتخيل ما تخيل وصور ما صور، فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها، أو رواية رائعة لكاتب جمل منظرها وفصل مواقفها وصقل لغتها، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئين والسامعين أكبر الأثر وأبلغه "[١].

فالمحاسبي يدعو القارئ أو السامع إلى تخيل نفسه في المشهد الموصوف بدقة تامة وبراعة فائقة مبتدئاً كل فقرة أو حادثة بقوله: " توهم أنك..." ثم يمضي في وصف المشاهد ويدقق ويفصل ويصور ويبالغ في التصوير حتى يدخل القارئ أو السامع في المشهد، ويعيش فيه ويتفاعل معه، فيكون له في النفوس أعظم الأثر.

أما في كتاب الرعاية، فالأسلوب السائد فيه التحليل النفسي العميق، وإن كان التخيل حاضراً والاثنان معاً دعماً بالطريقة الحوارية الحية المؤثرة، لذلك استهل نصحه بتقديم حسن الاستماع الذي أثنى الله -عز وجل- ورسوله صلى الله عليه وسلم عليه، فمن أحسن الاستماع استحق ذلك المدح[٢].

يقول المحاسبي - رحمه الله - بعد الحمد والثناء على الله: "فقدم حسن الاستماع منك لما أجبتك به لعل الله - عز وجل - ينفعك بفهم ما أجبتك عنه ... فإن الله تبارك وتعالى أخبرنا في كتابه أنه من استمع كما يحب الله ويرضى كان له فيما يستمع إليه ذكرى"[٣].

أما الطريقة الحوارية التي ذكرناها مراراً، فنضرب عنها مثالا من كتاب " الرعاية لحقوق الله"، "باب ما ينال به خوف وعيد الله عزوجل":

---

[١] المحاسبي: مقدمة التوهم، ص١٣.
[٢] قال تعالي: (إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) [الحجر:١٨]، وقال تعالى: (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) [الشعراء: ٢٢٣]، قال تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) [ق:٣٧]
[٣] المحاسبي: الرعاية، ص ٦٥.

قلت أي الجنيد فبم ينال الخوف والرجاء؟

قال: تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد.

قلت: فبم ينال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد؟

قال: بالتخويف لشدة العذاب والترجي لعظيم الثواب.

قلت: وما ينال التخويف؟

قال: بالذكر والفكر في العاقبة، لأن الله عز وجل قد علم أن هذا العبد إذا غيب عنه ما قد خوفه ورجاه، لن يخاف ولا يرجو إلا بالذكر والفكر؛ لأن الغيب لا يرى بالعين، وإنما يرى بالقلب في حقائق اليقين، فإذا احتجب العبد بالغفلة عن الآخرة... ولم يخف ولم يرج إلا رجاء الإقرار وخوفه، وأما خوف ينغص عليه تعجيل لذته .... انما يجتلب بالذكر والفكر والتنبيه والتذكير لشدة غضب الله وأليم عذابه وليوم المعاد[1].

فالنص الذي بين أيدينا وصف دقيق وتحليل مركز للطريقة التي بواسطتها يستشعر العبد الخوف والرجاء، وتظل نفسه خاضعة لتجاذب قوة الخوف والرجاء.

ولا بد إن صدقت النية وخلص العمل – أن يثمر التخويف الخوف ويفضي إليه، فكم من عاص وكم من مذنب غليظ القلب، انزجرت نفسه وتابت إلى الله، بعد أن عاهد خالقه على التوبة النصوح وتدبر آيات الوعد والوعيد، وطاف بعقله في أرجائها وذكر نفسه بمشاهد الحشر وأهوال القيامة، واستقر في مخيلته بعض ألوان عذاب جهنم وصنوف من ملذات الجنة ونعيمها، وبعد توبته أنعم الله عليه بقلب واعظ وأذاقه حلاوة التقوى.

---

[1] المحاسبي: الرعاية، ص ٧٠.

ويرى المحاسبي أن المسلم يملك التخويف أي باستطاعته أن يلجأ إليه ويمارسه تكلفاً، غير أنه لا يملك الخوف، وإنما يقذفه الحق سبحانه وتعالى في قلبه إن كان صادقاً في تخويفه لنفسه، فيقول: "إن الله عز وجل إنما خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا، ورجانا لنرجيها، والتخويف تكلف من العبد بمنة الله عز وجل وبفضله عليه، والخوف هائج منه لا يملكه .... وقد يخطر الله عز وجل الخوف بقلب العبد المؤمن من غير تكلف، أراد أن يتفضل عليه بذلك، وإن لم يخطره بباله لم يكن العبد عنده معذورا بترك تكلفه للتخويف، كما أمره أن يخوف نفسه لأن أمره بالفكرة في المعاد وذلك هو التخويف والترجي، وتهدده وتوعده ليتفكر في ذلك فيخافه ويرجو"[1].

ثم إن أهم ما يعين على تخويف النفس ويعجل بقطف ثمار الخوف، ولوج باب معرفة الله وصفاته، لأن من عرف الله سبحانه وتأمل بعض أسمائه الحسني: كالجبار والمتكبر والقهار والمنتقم والمذل خافه بالضرورة، قال تعالى:(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [فاطر: ٢٨]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية "[2].

وخوف العلماء أثبت في النفس وأشد أثراً في الجوارح، كما أنه يولد في القلب الذل والخشوع والاستكانة، لكون صاحبه يعلم أن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل.

ومن الطرق الناجعة كذلك في استشعار الخوف الإكثار من ذكر الموت، وزيارة قبور المسلمين قال العلماء: "ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر

---

[1] المصدر السابق: ص ٧١-٧٢.
[2] البخاري: صحيح البخاري: كتاب الآداب، باب ما لم يواجه الناس بالعتاب، (٢٦/٨)، برقم (٦١٠١).

إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وميتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور المسلمين، فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه ولزمه دنياه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قسوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتضر وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة فلذلك كان أبلغ من الأول"[1].

ومما يحسن الإشارة إليه أن الإفراط في التخويف قد يأتي بنتيجة غير مرضية، ومن ثم ينبغي للمسلم أن يراعي التوازن بين حالتي الخوف والرجاء، لأن الإفراط في الخوف يؤدي إلى اليأس والقنوط، كما أن الإفراط في الرجاء يوقع في التهاون والكسل، وكان فيما قاله أبو بكر الصديق – وهو يودع الدنيا – لعمر بن الخطاب: " ألم تر يا عمر أنها نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغباً راهباً، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه"[2].

---

[1] القرطبي: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن ،(١١٦/١٠)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية،١٩٦٤ م، ط/دار الكتب المصرية - القاهرة

[2] الخضري: محمد بن عفيفي الباجوري، اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص ٦٢، ط/ دار الايمان – بيروت.

خلاصة في منهج المحاسبي ومميزاته:

من خلال دراسة المحاسبي وبالأخص كتبه - رحمه الله - يتبين لي شيئا فشيئاً مميزات ذلك المنهج الذي سار عليه والذي عرف به، وفيما يلي ما استطعت - بجهد المقل - استخلاصه من بين هذه العناصر وما تميزت به:

١- التقيد والاستشهاد بالقرآن والسنة، والمحاسبي - رحمه الله - كثير الاستشهاد بهما في كل مسألة، وفي كل خطوة أو حيثية من مسألة.

٢- التحليل العميق الدلالات، والغوص في المعاني، وعدم التوقف عند ظاهرة الآيات وسردها باسترسال، بل التقلل من ذلك ومحاولة النفاذ إلى أعمق معنى فيها.

٣- الواقعية والقرب من النفوس فقد أدرك المحاسبي أن الناس يريدون الأمور محدودة مرسومة، فيسألون مثلا عن الخطوة الأولى في السير إلى الله، أو في التوبة أو ترك معصية معينة، فاعتمد الطريقة الحوارية الحية، التي تتميز كما أسلفنا بأنها واقعية تطبيقية بعيدة عن التجرد والتنظير والترف الفكري.

٤- سوق ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء وهي في أغلبها تعالج الجانب العاطفي الوجداني في الإنسان، ومذهبه جمع الاثنين معا "الترغيب " " والترهيب " كما في كتابه التوهم، وليس الترهيب فقط كما شاع عنه، وإن كان الترهيب يغلب أحيانا كثيرة، لكثرة حديثه وتحذيره من أمراض القلوب وعواقبها.

٥- وصف دقيق ولغة مصقولة وصياغة فائقة الحبك تقع من القلب بمكان، ولا يخفى على أحد دور اللغة وروعتها وبلاغتها في العرض والحوار والتأليف.

٦- استدعاء حاسة التخيل والتصور عند السامع أو القارئ، فيما يشبه تحضيراً نفسياً له بقطع قلبه وعقله عن العلائق والشواغل بما يعطي واقعاً أعظم

في النفس، والاستدعاء هذه إنما يكون تصريحا بعبارة: "توهم أنك..." والتصريح ها هنا كأدوات التنبيه في اللغة، وهو يقوم بالتكرار غير الممل، حيث يكرر المحاسبي – رحمه الله – العبارة نفسها – "توهم أنك" في بداية كل فقرة أو فصل، والتكرار أثره الترسيخ كما هو معلوم وتجديد التنبيه، فما يكاد الذهن يشرد أو يطفو إلا وعاد إلى التأمل والتخيل حتى يستغرق في ذلك الوصول إلى حالة كأنه يعيش فيها المشهد الموصوف.

٧- أما إطراق الرأس أمام الواعظ لغير المراءة وتكلف الخشوع، ففائدته تأتي من أثره المساعد على التأمل، وقد رأينا كثيرين وصفوا الصحابة أمام النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم "كأن على رؤوسهم الطير" وهذه العبارة وصف ابن السراج أصحاب المحاسبي، وذلك أن الإطراق يقتضي تركيز البصر على بقعة أمامنا وهي عادة معروفة لدينا، لا نفكر فيها بقدر ما نفكر في شيء آخر، والفائدة منها قطع الشواغل والعلائق البصرية، لذلك كان من فقه الصلاة النظر إلى موضع السجود بما يساعد على الخشوع.

٨- تخير أوقات الهدوء والسكينة، كالليل بعد العشاء، فهو وقت يسكن فيه الناس وتقل الجلبة والأصوات وكذلك المطالب والشواغل والملهيات، وهذا الاختيار الموفق يذكرني بما يسمى في صناعة الأفلام الحديثة بـ "المؤثرات السمعية والبصرية " المدروسة بدقة، والتي يرمى من ورائها إلى الاستئثار بأكبر قدر من حس المشاهد ووجدانه حتى يستغرق في الفيلم فكأنه يعيش فيه، وربما ذهل عما وعمن حوله، لذلك كانت الاسحار والليالي أفضل أوقات القيام والتفكر والحفظ والكتابة والتدوين. وكان هذا شأن المستمع أما الأثر في القارئ فيبقى على قدر من القوة، وإن اختلف في القراء حسب استعدادهم وتحققهم بالعناصر المذكورة أثناء قراءتهم.

٩- يعتمد المحاسبي - رحمه الله - في تقوية أثر كلامه أو مكتوبه على التسلسل البديع والتناسق الفائق الحبك بينهما، وإن كان يخيل لك وأنت تنظر إلى فصول الكتاب أن نصوصه وصفية إنشائية، ولكنك حين تتأملها لا تجد فيها كلاماً غير ذي فائدة كما أسلفنا.

فالمحاسبي إذا شئنا القول عملي جداً، فمن خلال قراءتي لكتاب "الرعاية" شدني ذلك المرور السلس من فكرة إلى فكرة أخرى، ومثال بسيط عنه ترابط الأبواب من الكتاب في المخطط التالي: التوبة: لا تحصل دفعة واحدة، بل هي ثمرة عمل جاد وهي آخر حلقة في الطريق الذي يبدئ بالفكر في العاقبة وينتهي بالتوبة وبينهما خوف ورجاء، ومثله فعل في مواضيع كثيرة، ولا شك أن هذا الترابط والتناسق على دقته وتكرره ليس وليد صدفة، ولا شك أن المحاسبي - رحمه الله - قصد به تعميق أثر ما يقول وما يكتب.

ولا شك أن هذه العناصر لهذا المنهج مجتمعة، توصلنا إلى أن نفهم لماذا بكى أحمد بن حنبل - رحمه الله- وهو صاحب الزهد لسماع كلام المحاسبي — رحمه الله - حتى أغشى عليه أو كاد، ولماذا كان بين يدي المحاسبي - رحمه الله - من المستمعين من يناله من تلك الوجدانية حتى تهتز لها أوصاله.

يختص المحاسبي بين أقران عصره وبين العلماء جميعاً أنه يكشف عن حاجات النفوس من واقع مطالبها، فلا يفرض على المجتمع فكره هو وحاجاته، وقد تمثل ذلك في طريقة تأليف كتبه بعد الإجابة عن أسئلة تلاميذه، بل كان يجتمع بهم ولا يحدث إلا إجابة؛ لذلك فقد وفى بحاجات عصره، وليس كمثل فكر عصرنا المفروض من كتاب لم يتحروا فيه أن يجعلوه صورة واقعية لحيرة الناس، فالكتب اليوم تملأ الدنيا والناس حيارى تائهون.

المبحث الخامس

الحارث المحاسبي بين المادحين والقادحين

تحريت أقوال العلماء في المحاسبي – رحمه الله– فوجدت أكثرهم له على المدح والثناء والتزكية، لكن عرض لي في مواضع كثيرة أقوال يتناقلها البعض في كتب أو كتيبات، كلها ذم له وصد عنه، وتنكير عليه وتبديع، فرأيت من الواجب أن أتحقق منها ومن مصادرها، فكانت الخلاصة التالية، ولا أزعم أني قد جمعت كل تلك الأقوال، بل لعلها تكون جُلها أو أهمها سواء للمادحين أو القادحين:

أولاً: المادحون:

- قال الإمام الغزالي: "المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأعوار العباد، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه"[1]، وهذا تقدير كبير من عالم كالغزالي، بلا شك أنه اطلع على أغلب كتبه حتى يقول كلاما كهذا.
- قال السبكي: "عالم العارفين في زمنه وأستاذ السائرين الجامع بين علمي الظاهر والباطن"[2].
- وقال: كان إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها"[3].
- وقال شيخ الإسلام المناوي في "الكواكب الدرية": " المحاسبي البصري "عالم العارفين في زمانه وأستاذ السائرين في أوانه، عالم سار بان فضله وصوفي

[1] البغدادي ، تاريخ بغداد، (٣/٨)

[2] السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ،(٧٣/١).

[3] المرجع السابق: (٧٤/١).

طار نبله، برع في عدة علوم، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون وأحيا القلوب بوعظه، تصانيفه مدونة مسطورة، وأحواله مصححة مذكورة، وكان في علوم الأصول راسخاً راجحاً، وعن الخوض في الفضول جانحاً، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً، وللمريدين مربياً وناصحا[١]".

- ذكره ابن كثير في الطبقة الأولى من أصحاب الشافعي قال: "كان إماماً في الفقه والتصوف والحديث والكلام وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها، وإليه ينسب أكثر متملكي الصفاتية ثم قال لو لم يكن في أصحاب الشافعي في العلوم إلا الحارث لكان مغبراً في وجوه مخالفيه "[٢].
- ولما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد معرفاً له قال: " الحارث بن أسد أبو عبد الله المحاسبي أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن، وحدث عن يزيد بن هارون وطبقته روى عنه أبو العباس بن مسروق الطوسي وغيره، وللحارث كتب كثيرة في الزهد وفي أصول الديانات والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما، وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع"[٣].
- وقال عنه الخطيب أيضاً: "كان عالماً فهماً، وله مصنفات في أصول الديانات وكتب في الزهد، روى عن يزيد بن هارون وغيره، وعنه أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي وأحمد بن القاسم بن نصر الفرائضي وأبو القاسم الجنيد بن محمد الصوفي وأبو العباس بن مسروق وإسماعيل بن إسحاق الثقفي السراج وأبو علي بن خيران الفقيه ، وذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في

---

[١] المناوي: الكواكب الدرية، (١٣٧/١)
[٢] ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، طبقات الشافعيين، ص ١٢٦، تحقيق: د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية عام ١٩٩٣م.
[٣] البغدادي: تاريخ بغداد، (١٣/٨)

الدماء فقال على هذا الكتاب عول أصحابنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة، وكان قد ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئاً، قيل لأن أباه كان يقول بالقدر فرأى من الورع أن لا يأخذ ميراثه ... سئل عن العقل ما هو فقال: نور الغريزة مع التجارب، يزيد ويقوى بالعلم والحلم"[١].

- قال أبو نعيم في الحلية: " المشاهد المراقبي، والمساعد المصاحبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، كان لألوان الحقائق شاهداً ومراقباً، ولآثار الرسول – صلى الله عليه وسلم – مقتفياً"[٢].
- قال الإمام الذهبي رحمه الله: " والمحاسبي العارف صاحب التواليف: صدوق نفسه، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيف"[٣].
- ويقول ابن خلكان مترجماً للمحاسبي: " أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري الأصل الزاهد المشهور، أحد رجال الحقيقة وهو ممن اجتمع له علم الباطن والظاهر، وله كتب في الزهد والأصول، وكتاب الرعاية له"[٤].
- قال الزركلي في الأعلام: "من أكابر الصوفية كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره"[٥].

---

[١] ابن خلكان: وفيات الأعيان، (٢/٥٧-٥٨).
[٢] أبو نعيم: الحلية: (١٠/٧٨).
[٣] الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز ، ميزان الاعتدال، (١/٤٣٠)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة: الأولى، ١٩٦٣ م، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.
[٤] ابن خلكان: وفيات الأعيان، (٢/٥٧).
[٥] الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام،(٢/١٥٣)، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م، دار العلم للملايين.

- قال الشيخ زاهد الكوثري: "لقد تبطن الغزالي كتاب الرعاية في كتابه الإحياء"[١].
- قال عنه لويس ماسينيون في كتاب "مصطلحات التصوف": " إن المحاسبي سما في كتابه الرعاية بالتحليل النفسي إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً"[٢].
- ويقول عنه الأستاذ ريتز: " إن المحاسبي في الواقع هو منشئ مبادئ التحكم الأخلاقي المنظم في الذات في إطار التقوى الإسلامية "[٣].

هذه بعض أقوال العلماء في القديم والحديث عن الحارث المحاسبي، تبين من خلالها مدي علم الرجل وورعه وزهده وتصوفه وعلو قدمه في العلم والمعرفة.

ثانياً: القادحون:

رأينا أن المحاسبي – رحمه الله– من العباد الزاهدين، ومن الذين تكلموا في الرقائق والمواعظ فأبكى، وشهد له كثير من معاصريه بالصلاح والتقوى، لكن في مقابل هذا تتردد انتقادات وشبه حول شخصه وعمله، كان لزاماً علينا هاهنا أن نتبين غثها من سمينها وخطأها من صوابها، وقد جمعت مجمل ما انتقد عليه فكان:

الأول :اشتغاله بعلم الكلام وتصنيفه فيه والرد على المعتزلة وغيرهم، وأخذه برأي جهم في الصفات.

---

[١] المحاسبي: الرعاية، مقدمة أ.د.عبد الحليم محمود ، ص ٢٩.
[٢] ابن عجيبة: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد، مصطلحات التصوف، من واقع كتاب التشويق إلى حقائق التصوف، ص٤٥، ت/عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الاولي ١٩٩٩م، مطبعة مدبولي- القاهرة.
[٣] المرجع السابق، ص ٤٦.

الثاني :إيراده الأحاديث الضعيفة والموضوعات في كتبه وتصانيفه، والاستشهاد بها.

الثالث :اتهامه بالابتداع فيما كتبه وجاء به في حديثه عن الخطرات والرياء وغيره، مما لا عهد به من قبل عند الصحابة والتابعين والأئمة.

الرابع :صد أحمد وكثيرون في بعده عنه، وعن كتبه، وهذه الانتقادات هي ملخص ما جاء في الأقوال التالية مفصلة:

ذكر شواهد من الانتقادات ونصوصها ومصادرها:

عرض لي في أثناء البحث في اعتقاد المحاسبي -رحمه الله – وإيراد قول أحمد الذي يصفه فيه باتباع رأي جهم، واتضح لي بعد استبيان الأمور أن ذلك لم يثبت، والشواهد فيه كثيرة أكتفي منها بثلاث تغني عما سواها:

- **النص الأول: كلام الشيخ ابن تيمية عنه:**

ها هو ابن تيمية ينفي عنه أن يكون جهمياً أو معتزلياً، وينسبه إلى أهل السنة.

سئل ابن تيمية: "ما تقول السادة أئمة الدين – رضي الله عنهم أجمعين – في الحديث الذي ذكره البخاري مستشهداً به في صحيحه، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: " إن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان " ، وفي قوله عليه السلام : "يقول عز وجل : يا آدم ، قم فابعث نغث النار" الحديث المشهور، فإن بعض الناس قال : لا يثبت لله صفة بحديث واحد.

فما الجواب عن هذه المسألة من الكتاب والسنة، والآثار، والنظائر، وابسطوا القول في ذلك، أفتونا مأجورين؟ فكان من جوابه هذا النص الذي ننقله كاملا:

"...وأن ذم السلف والأئمة لأهل الكلام والجهمية، وأهل الخوض في الأعراض والأجسام أعظم ما قصدوا به ذم مثل هذا، كما قد بسط الكلام على ذلك في موضعه.

ولما ظهرت مقالة الجهمية جاء بعد ذلك أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب يوافق السلف والأئمة على إثبات صفات الله تعالى، وعلوه على خلقه يعلم بالعقل، واستوائه على العرش يعلم بالسمع، وكذلك جاء بعده الحارث المحاسبي وأبو العباس القلانسي وغيرهما من المتكلمين المنتسبين الي السنة والحديث.

وأن ابن كلاب يوافقهم في أكثرها، وهؤلاء يسمون الصفاتية؛ لأنهم يثبتون صفات الله تعالى خلافا للمعتزلة، لكن ابن كلاب وأتباعه لم يثبتوا لله أفعالا تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، بل ولا غير الأفعال مما يتعلق بمشيئته وقدرته.

فكانت المعتزلة تقول: "لا تحله الأعراض والحوادث". وهم لا يريدون بالأعراض الأمراض والآفات فقط، بل يريدون بذلك الصفات، ولا يريدون بالحوادث المخلوقات، ولا الأحداث المحلية للمحل، ونحو ذلك مما يريده الناس بلفظ الحوادث، بل يريدون نفي ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها، فلا يجوزون أن يقوم به خلق، ولا استواء ولا إتيان ولا مجيء، ولا تكليم ولا مناداة، ولا مناجاة، ولا غير ذلك مما وصف بأنه مريد له قادر عليه.

وابن كلاب خالفهم في قولهم: لا تقوم به الأعراض، وقال تقوم به الصفات، ولكن لا تسمى أعراضا، ووافقهم على ما أرادوه بقولهم: لا تقوم به الحوادث من أنه لا يقوم به أمر من الأمور المتعلقة بمشيئته.

فصار من حين فرق هذا التفريق المنتسبون إلى السنة والجماعة، القائلون بأن القرآن غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، وأن الله فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه على قولين ذكرهما الحارث المحاسبي وغيره.

طائفة وافقت ابن كلاب كالقلانسي، والأشعري، وأبي الحسن بن مهدي الطبري ومن تبعهم، فإنه وافق هؤلاء كثير من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم: من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل، وأبي حنيفة وغيرهم.

وكان الحارث المحاسبي يوافقه ثم قيل: إنه رجع عن موافقته، فإن أحمد بن حنبل أمر بهجر الحارث المحاسبي وغيره من أصحاب ابن كلاب لما أظهروا ذلك، كما أمر السري السقطي الجنيد أن يتقي بعض كلام الحارث، فذكروا أن الحارث – رحمه الله تاب من ذلك، وكان له من العلم والفضل والزهد، والكلام في الحقائق ما هو مشهور، وحكى عنه أبو بكر الكلاباذي صاحب مقالات الصوفية: أنه كان يقول: إن الله يتكلم بصوت، وهذا يوافق قول من يقول: إنه رجع عن قول ابن كلاب.

قال أبو بكر الكلاباذي: وقالت طائفة من الصوفية: كلام الله حرف وصوت وأنه لا يعرف كلام إلا كذلك، مع إقرارهم أنه صفة لله في ذاته، وأنه غير مخلوق، قال: وهذا قول الحارث المحاسبي ومن المتأخرين ابن سالم.

وبقي هذا الأصل يدور بين الناس حتى وقع بين أبي بكر بن خزيمة الملقب بإمام الأئمة، وبعض أصحابه بسبب ذلك، فإنه بلغه أنهم وافقوا ابن كلاب

فنهاهم وعابهم، وطعن على مذهب ابن كلاب بما كان مشهورا عند أئمة الحديث والسنة"[١].

والحاصل من هذا النص من كلام ابن تيمية- فيما يخص المحاسبي- عدة أمور أهمها :

١. أن المحاسبي – رحمه الله- من أقطاب علماء عصره في العقائد والكلام وأصول الديانات (الملل والنحل).

٢. وأنه – رحمه الله –كان من أهل السنة والحديث.

٣. وأنه إن وافق ابن كلاب في هذا الرأي المختلف فيه فهو لم يخرج من أهل السنة.

٤. وأن ما رجحه ابن تيمية أن الحارث – رحمه الله- رجع عن هذا الرأي وكان له من العلم والفضل والزهد، والكلام في الحقائق ما هو مشهور، وأن الكلاباذي صاحب مقالات الصوفية أكد ذلك: " أنه كان يقول: إن الله يتكلم بصوت"[٢]، وهذا كما قال ابن تيمية: "يوافق قول من يقول: إنه رجع عن قول ابن كلاب."

٥. والذي يؤكد عندي ترجيح ما سبق، ما رواه أبو بكر بن حماد[٣]: "إن الحارث مر به ومعه أبو حفص الخصاف، قال فقلت له: يا أبا عبد الله تقول إن

---

[١] ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ، مجموع الفتاوى،(١٢٥/٦-١٢٦)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة – السعودية عام ٢٠٠٤م.

[٢] الكلاباذي: محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص ١٩٠، دار الكتب العلمية – بيروت.

[٣] الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (٢٥/١٠)،ت/ عمر عبد السلام التدمري، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، دار الكتاب العربي، بيروت.

الله يتكلم بصوت؟ فقال لأبي حفص أجبه. فقال أبو حفص: متى قلت، بصوت، احتجت أن تقول بكذا، وكذا . فقال للحارث: فماذا تقول أنت؟ قال: قد أجابك أبو حفص . قال أبو عبد الله بن حنبل : أنا من ذلك اليوم أحذر عن حارث." قلت: فسبحان الله في قوم يغفلون كل هذا ويسوقون ما يشتهون قاصدين الطعن في العلماء الذين قيل فيهم: لحوم العلماء مسمومة."

- **النص الثاني ما أورد ابن تيمية في الفتوى الحموية:** من كلام المحاسبي وناقشه واستشهد به في الرد على المعطلة، وفي مسألة النسخ في آيات الصفات ونحوها، وكان في كل ذلك منتصرا له مترحماً عليه: "...فذهبوا إلى أن ما يعقل من أنه يحدث منهم علم سمع لما كان من قول: لأن المخلوق إذا سمع حدث له عقل فهم عما أدركته أذنه من الصوت، وكذلك قوله (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ). [التوبة:١٠٥] لا يحدث بصراً محدثاً في ذاته، وإنما يحدث الشيء فيراه مكوناً، كما لم يزل يعلمه قبل كونه. إلى أن قال: وكذلك قوله تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام: ١٨] وقال أبو عبد الله (أي المحاسبي): فلن ينسخ ذلك لهذا أبدا. كذلك قوله: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَه) [الزخرف :٨٤]، وقوله: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) [ق: ١٦]، وقوله: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) [الأنعام : ٣] ، وقوله : (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) [المجادلة:٧] ، فليس هذا بناسخ لهذا، ولا هذا ضد لذلك، (وهذا النقل عن الحارث المحاسبي له صلة بما تقدم من النقل السابق الذي بدأه رحمه الله بقوله: وإن النسخ لا يجوز في الأخبار) وسبب سياق هذه القاعدة أن بعض المشبهين يتمسكون ببعض النصوص التي يضربون بعضها ببعض، ويحتجون بها على إبطال ما أثبته الله تعالى

لنفسه"[١]. وهذا يبين لنا مدي الثقل العلمي للشيخ المحاسبي في الرد على المعطلة، وأخذ العلماء الكبار للكلام في الرد، ومدي علمه الواسع بالناسخ والمنسوخ، فكيف لمثل هذا ان يتهم انه جهمياً أو معطلا؟!

- النص الثالث: للمحاسبي يبين بعض آرائه في الفرق:

أما عن شاهد من كلام المحاسبي نفسه، فنثبت هاهنا نصاً من الرعاية يتحدث فيه عن الخطرات، قال- رحمه الله: "ومهما يكن من شيء فإنه إذا عرضت الخطرات عرضها (أي المؤمن) على الكتاب والسنة: فما وافق قبله وما خالف رفضه ... فانه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة أهي بدعة، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية، وقد يرى أنها داعية إلى الخير وهي الشر، كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر، وإلى الرجاء على العمل بالعجب والغرة، وإلى المنافسة بالحسد، وإلى الغضب لله عز وجل بتمني البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله منهم، ونحو ذلك من الخطرات وإلى القدر بتنزيه الله عز وجل وإلى رأي جهم بنفي التشبيه وإلى التشبيه بنفي رأي جهم، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان...

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة يحسبها سنة، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة، فكذلك أهل السنة لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون.

[١] ابن تيمية: الفتاوي، (١٣٠/٦).

ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده بالسنة في عبادة ولا غيرها، لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه وتوكله، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة وهو يرى أنها سنة، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد، والخروج في السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين، وبتحريم الدواء، وترك التمني أن المعاصي لم تكن ، وبالاشتغال بالله عز وجل بترك الفرائض وبترك النوافل، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيب: من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون وما يكتمون، ويحتجون في ذلك بآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن ينظر بنور الله)، وكل فرقة مما ذكرنا تحتج بالآثار والكتاب والمقاييس ولكن يطول ذكرها، وإنما أردنا تحذير جملتها ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة، وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال: كالقدر ورأي جهم والرفض والاعتزال ونحوه، فلن يميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله إلا بشاهد العلم"[١].

إن هذا النص الذي جاء بصورة عابرة عفوية في كتاب الرعاية، يشير إلى ما كان يمكننا أن نعفه ونفصل فيه لو أننا عثرنا على كتب المحاسبي – رحمه الله– الكلامية، ولكن النص على إجماله بالغ الأهمية، إذ يبين بوضوح موقف المحاسبي من الفرق الكلامية والاتجاهات المنحرفة في التصوف.

فمن الناحية الصوفية يفيدنا النص أن المحاسبي يدعو إلى زهد يوافق السنة ولا يخالف زهد الأئمة المتقدمين من الصحابة والتابعين، ويشنع على جهلة المتصوفة

[١] المحاسبي: الرعاية، ص ٨١-٨٢.

وغلاتهم ما شنع عليهم ابن الجوزي بعده بقرون ومن سبقه ومن لحق به من خلفه، ومن الناحية الكلامية، يبين لنا أن المحاسبي لا ينتسب إلى المعتزلة ولا إلى الجهمية، وليس مشبهاً ولا معطلاً، لا مرجئاً ولا خارجياً ولا شيعياً كما يحلو للبعض أن يشيع دون بينة ولا دليل.

أما بالنسبة إلى إيراده الأحاديث الضعيفة والموضوعات في كتبه، واتهامه بالابتداع:

فإن نسبة المحاسبي – رحمه الله– إلى البدعة، جاءت من أصحاب الحديث بصفة خاصة، وكان لازماً أن نتفطن إلى هذا الأمر، ذلك أن عصره اشتهر بالرواية والسند بعد أن كثر الوضع والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر خلت منه كتب المحاسبي، إذ كان همه في التعمق في المعاني ومعايشة النصوص وتفعيلها للتوصل إلى الغاية منها وهي حصول التقوى، ولم يكن ديدنه تحقيق الأسانيد وتصنيف الأحاديث صحة وضعفاً.

وإن كان درس الحديث وأتقنه، ويكفي أن نذكر بقول المروزي: " قد خرج المحاسبي إلى الكوفة وكتب الحديث"، رواية في المنتظم: " أبا عبد الله يروي الحديث وهو ساكن خاشع من قصته "[١]، حتى نفهم أن معيار ذاك العصر هو الحديث والرواية.

ثم إن ما جاء في كتبه تربية فذة للنفس الإنسانية، من حيث اكتشاف أحوالها وسبر أغوارها، ومعرفة نزعاتها، وهو ما لم يفطن له أهل طبقته، إذ إنه أول من تكلم في ذلك على ذلك النحو المعروف عنده، فكان ذلك جديدا في بابه، وكل جديد ينظر إليه بعين التحفظ، فإما أن يعد بدعة كما عند أبي زرعة: هذه كتب

[١] الذهبي: تذكرة الحفاظ، (١١٤/٢).

بدع وضلالات عليك بالأثر تجد غنية، هل بلغكم أن مالكاً والثوري والأوزاعي صنفوا في الخطرات والوساوس ما أسرع الناس إلى البدع، والضلالات في كتب المحاسبي.

أما خوف أن يأتي المحاسبي بالبدعة في ذلك الضرب من أحاديث النفس وتتبعها ومراقبتها ومحاسبتها فما رأينا منه ذلك في كتبه، بل كان متعقباً للبدعة مطارداً لها حتى في الخطرات وأدق الأفكار.

أما كره من انتقد فيه تشدده في الورع فلعل لهم فيه بعض الحق إن كان يؤدي إلى التنطع والمغالاة، ومن ينهى بعض الناس عن قراءة الرعاية ينهى خوفاً منه أن يترك العمل والاجتهاد مخافة الرياء الذي أوغل المحاسبي- رحمه الله- في وصف ظاهره ودقيقه إلى أن كان استغرق فيه ربع الرعاية أو أزيد، إلا أننا نرى العكس عند المحاسبي، إذ كان هو نفسه السباق إلى النهي عن التشدد والتنطع والمغالاة في الزهد.

ومما ينبغي التفطن له أن بداية المحاسبي لم تكن كنهايته، ففي مطلع شبابه كتب " الوصايا" وكان فيه متشدداً غاية الشدة، حتى كاد يكره حيازة المال على أي صورة في احتجاجات طويلة، لا شك أن لعصره دوراً في ذلك.

لكنه عاد يقول بعد استقرار الحال: "إن الزهد ليس بإهدار الملكية الفردية، بل عمل قلبي تصدقه اليد، فكم من فقير حريص، وكم من غني زاهد"[1].

كذلك الحال في باب المدح والذم، فقد كان في الوصايا يتشدد في القول حتى إنه لا يكاد يرى ناجياً من خلل قبول المدح والنفرة من الذم، ثم عاد في نهاية حياته يضع الضوابط الدقيقة، يفرق بين قلب يأنس بالمدح وينفر من الذم، وبين

[1] المحاسبي: الرعاية، ص ٨٧.

قلب يستوي عنده هذا وذاك، وهكذا في فروع السلوك التي عالجها، نلمح اندفاع الشباب في البداية، واتزان وحكمة الشيوخ في النهاية.

أما ابن الجوزي في "تلبيس إبليس" فقد ذكر المحاسبي نحو اثنتي عشرة مرة هي تكرار للروايات التي رأيناها، لم يذكره بخير قط وكأنه الشر المحض، بل زاد عليها قال المصنف وقد ذكر أبو بكر الخلال عن أحمد بن حنبل أنه قال: "حذروا من الحارث أشد التحذير، الحارث أصل البلية – أو البلبلة- يعني في حوادث كلام جهم ذاك جالسه فلان وفلان وأخرجهم إلى رأي جهم مازال مأوى أصحاب الكلام حارث بمنزلة الأسد المرابط انظر أي يوم يثب على الناس "[١]. وهذا ما لم أعثر عليه عند غيره، ثم إن كان النقاد قد لاحظوا في هذا الكتاب حملة بلا هوادة على الصوفية الذين كان حظهم شطر الكتاب أو أزيد، ولا أحد يدافع عن أخطائهم وطاماتهم وشطحاتهم، ولكن الإنصاف مطلوب.

ولقد تأملت في تدوين خبر وفاته فقلت: سبحان الله ، حتى في ذكر وفاته تزكية له، فقد ذكره ابن خلكان في وفياته "وليس ذلك إلا لأنه أحد أعيان الأمة"، أما قول ابن كثير عند ذكر وفاته: "والحارث بن أسد المحاسبي أحد أئمة الصوفية "[٢] فالوصف بالإمامة دون التنكير تزكية، لأنه كان من عادة القوم إتباع ذكر الفساق والمبتدعة بأوصاف تدل عليهم، وهذا لن أعثر عليها في حق المحاسبي رحمه الله.

أما ما جاء من أنه مات فلم يصل عليه إلا أربعة نفر فإنه لم يثبت فيها إلا روايات متأرجحة، لا أدل على عدم صحتها من صيغتها، فأبو القاسم

[١] ابن الجوزي: تلبيس ابليس، ص ٢٢٨-٣٣٠.
[٢] ابن كثير: البداية والنهاية، (١٠/٢٥٦).

النصراباذي يتحدث عن ذلك بقوله: "بلغني" ، وابن الأعرابي بصيغة " وقيل" ، بل سيقت في ذكر وفاته رواية الخطيب في تاريخ بغداد عن أبي ثور الذي حضر وفاته وذكر حسن خاتمته.

وأما أنه أورد بعض الأحاديث الضعيفة، فيكون السؤال الذي وجب الإجابة عنه: هل أوردها مع علمه بضعفها؟

وقد رأينا أنه كان على علم بالحديث، فقد ذكر غير واحد من العلماء الثقاة أمثال الخطيب في تاريخ بغداد[١]، أن المحاسبي روى عن يزيد بن هارون وغيره وعنه أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، وأحمد بن القاسم بن نصر الفرائضي، وأبو القاسم الجنيد بن محمد الصوفي، وأبو العباس بن مسروق، وإسماعيل بن إسحاق الثقفي السراج، وأبو علي بن خيران الفقيه.

بل رأينا السبكي في طبقات الشافعية يفتخر بالإسناد عن جماعة من رجال المذهب عد فيهم المحاسبي[٢]، وإن كان روى بعض الأحاديث الضعيفة في كتبه مما لم تتناوله أيدي المحققين من المحدثين بعد، كثيراً منها رواها ابن المبارك في الزهد[٣].

ولقد أعاد العز بن عبد السلام في كتابه "مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل " – أو مختصر رعاية المحاسبي– بناء كتاب " الرعاية لحقوق الله" للمحاسبي، فاختصره ورتبه وجمع فوائده وفصوله، وهذا قبل كل شيء اعتراف بلسان الحال للمحاسبي، ولم يكن العلماء من رتبة سلطان العلماء العز من يعيد ترتيب كتاب لا نفع فيه.

[١] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، (٢٢٠/٨).
[٢] السبكي: طبقات الشافعية: (٧٥/١).
[٣] ابن المبارك: عبد الله بن المبارك المروزي ، الزهد والرقائق، ص ٢٢٣، ت/حبيب الرحمن الأعظمي، ط/ إحياء المعارف- الهند.

وأحب أن أشير إلى أن ابن الجوزي الذي تهجم على الغزالي ولم يكد يبقى له وفيه خير، فعل الشيء نفسه مع الإحياء فاختصره في منهاج القاصدين، ثم إن العز وإن كان تكلم في نعت المحاسبي بالبدعة فإنه – وعلى العكس مما يذهب إليه الطاعنون – وقف مع المحاسبي، حيناً وضده حيناً آخر، وعلى كل حال، فإن جانب المحاسبي الصواب فهو بشر، وكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم صلوات ربي عليه، لكنه يعود ليعد المحاسبي من صفوة الأمة في كتابه صفة الصفوة [١].

ولما ضقت ذرعاً بتضارب الأقوال تلمست القول الفصل في كتب الرجال (الجرح والتعديل)، فوقعت على ذكر المحاسبي عند حافظ الدنيا ابن حجر العسقلاني وعند الإمام الذهبي:

ذكر ابن حجر في تقريب التهذيب: الحارث ابن أسد المحاسبي الزاهد المشهور أبو عبد الله البغدادي صاحب التصانيف مقبول من الحادية عشرة مات سنة ثلاث وأربعين"[٢].

وقال عنه في لسان الميزان: "الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله البغدادي الزاهد المشهور"[٣].

ولقد قام الإمام الذهبي بالتعديل له: فقال- رحمه الله- "والمحاسبي العارف صاحب التواليف، صدوق في نفسه، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه"[١]. فالإمام الذهبي لو ثبت عنده دليل أن يجرحه لعلة قادحة فيه، لما توانى.

---

[١] ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفوة الصفوة، (٤٩٣/١)، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر سنة ٢٠٠٠م.

[٢] ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، تقريب التهذيب، ص ١٢٠، تحقيق: محمد عوامة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م، دار الرشيد – سوريا.

[٣] ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، لسان الميزان، (٧/٧٤٢)، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م، دار البشائر الإسلامية - بيروت

ولقد قال السبكي في مقدمة كتابه طبقات الشافعية: "فأما ما سقناه من الأحاديث بالأسانيد فلقد أوقفني بعض فقهاء أبناء الزمان على نحو سبعة عشر حديثاً وقعت له من طرق جماعة من الفقهاء الشافعيين وهو قد تبجح بها وأفردها.

فأنا ولله الحمد قد أسندت في كتابي هذا حديث المزني، وأبي ثور، وأبي عبد الرحمن أحمد بن يحيى الشافعي، ومحمد بن الإمام الشافعي، وأبي بكر الصيرفي، وأبي عبيد بن حربويه، وابن سريج، والحارث المحاسبي، والجنيد، وأبي الحسن الأشعري والداركي، وأبي الوليد النيسابوري، وأبي بكر بن إسحاق الصبغي، والشيخ أبي حامد الإسفرايني، والأستاذ ابن أبي سهل وابنه سهل الصعلوكيين، والقفال الكبير، والماسرجسي، وأبي بكر الدقاق، والحليمي، والأستاذ أبي إسحاق، وأبي جعفر الترمذي، وأبي زكريا السكري، وابن فورك، وأبي جعفر البحائي، والقاضي أبي عمر البسطامي"[٢].

فالسبكي يفتخر بهذه الأسانيد وأصحابها من جهابذة المذهب وعلمائه، الذين عد فيهم الحارث المحاسبي، قلت: لعمري إن هذا غاية التعديل والثقة من تاج الدين السبكي، قطب الحديث ومرجع العلماء في الجرح والتعديل، والحمد لله علي تبرأة الشيخ الحارث المحاسبي من كل منسب اليه زوراً وبهتاناً.

---

[١] الذهبي ، ميزان الاعتدال،(٣٤٠/١)
[٢] السبكي: طبقات الشافعية: (٤٥/٢)

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد إتمام البحث بعون من الملك المعبود، أسأل الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في إبراز هذه الشخصية ومنهجها وأهم ما أثير حولها.

ولتمام الفائدة فإنني أحاول أن أبرز أهم النتائج التي توصلت إليها من هذا البحث المتواضع وهي كما يلي:

١- إن الحارث بن أسد المحاسبي أحد أئمة الصوفية، وأن تصوفه تصوف سني.

٢- ان كتبه في علوم: التصوف والفقه والحديث والكلام أصول لمن يصنف فيها.

٣- ان المحاسبي كان مجتهداً مطلقاً في الشريعة، يكره التقليد وهو الذي خالف أباه في أول أيامه، كما أنه قد عنى ب" فقه ما لم يدونه الفقهاء"، مثل: من أم قوماً فألزم قلبه الحذر في القراءة، وباب الشهرة والاحتساب في سرور المسلم، ومذاهب السلف عند غلبة الحرام على المطاعم، وأغاليط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "... وأبواب لا يدونها إلا عالم مجتهد مطلق مستقل بعلمه ومذهبه.

٤- أن الإمامين أحمد والحارث كانا متعاصرين، وخلافهما لم يفسد للود قضية، وإنما كان حملة الامام أحمد على كتب الحارث الكلامية بسبب موقفه المشهور من الكلام عامة، وانكار أحمد كان على الأسلوب والطريقة التي كان ينصر المحاسبي بها الدين، كما أنه لم يثبت أبداً أن أحمد جرح المحاسبي صراحة،

ولا أن المحاسبي رد عليه ولا على من زعم أن أحمد جرحه، ورأي المحاسبي – رحمه الله – في المسائل الكلامية معروف، وهو الرأي السلفي وهذا أمر يتفق فيه الإمامان.

٥- لقد أثر المحاسبي في أهل وقته وعصره، بل تجاوز وقته وظل له متلقون وإن لم يعاصروه، ولا شك أن خير من ظهر فيهم أثره الإمام أبي حامد الغزالي، بل فقد سبق الغزالي أيضا في مزج الفقه الإسلامي مع عنصره الروحاني والنفسي، فجاء أستاذاً فريداً في بابه سابقاً في منهجه، لم نعرف له نظيرا سبق إليه، ولا لحق به في مضماره كمنهج دقيق من التحليل النفسي لأول مرة في التاريخ، واستعماله كذلك لأول مرة في الفكر الديني، وكان رحمه الله لا يعتمد في أحكامه على عموميات مشهورة، فكل ما كتب في كتبه إنما نابع من تجاربه ومشاهداته، وهذا قل ما نجده.

٦- كان المحاسبي بعيداً عن مجالس الشهرة وعن الأمراض التي أصابت العلماء في عصره، حتى إن اجتماع تلاميذه إليه كان ليلاً على غير عادة مدارس العلم، اكتشف المحاسبي أن انفصال الدنيا عن الآخرة وتحكم الهوى سبب الداء الذي لم ينج منه العلماء فضلا عن غيرهم، هذا الذي لم تحصل معالجته مجالس الفقه ولا حلقات الحديث ومصطلحاته فكان الحل في رأيه في العودة إلى ما كان عليه الصحابة في الربط الوثيق بين الدنيا والآخرة.

٧- رفض انطلاق الصوفية نحو الأوهام وتأليه الفرد والغلو في الزهد المبتدع ...، حين عنف بشدة من يسمون بأهل الخطوة، والمنعزلين... وهذا يؤكد استقلاليته في آرائه.

٨- لقد كان المحاسبي جريئاً في نقده للمبتدعين والمنحرفين، من تيار الصوفية أو المعتزلة أو غيرهم، فكان قوة لمدرسة أهل السنة في تصديها للهجوم على مقومات الأمة، فقد خالف عادة الصوفية كالحافي والسري الذين كانوا يقتصرون على السلوك وبعض روايات السنة، بل كان على رأس المدرسة الجديدة التي تمزج بين نص السنة وروحه، مع العلماء والزهاد الأوائل، الأبرياء والبعيدين عن كل دخيل من النظريات والأقوال.

٩- ونختم بأهم ما يمتاز به منهج المحاسبي الصوفي وهو: التقيد والاستشهاد بالقرآن والسنة، والوصف الدقيق واللغة المصقولة والصياغة الفائقة الحبك التي تقع من القلب بمكان، واستخدام التخيل والتصور، والتحليل العميق للدلالات والمعاني، والواقعية والقرب من النفوس، والتسلسل البديع والتناسق الفائق، وعلاج الجانب العاطفي الوجداني في الإنسان.

رحم الله شيخنا المحاسبي ونفعنا بعلومه في الدارين، هذا وإن كنت قد وفقت فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى فحسبي أنى اجتهدت وحاولت وحللت وبينت والكمال لله وحده، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، ولله الحمد أولاً وأخراً وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، تلبيس إبليس، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان
- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة: تحقيق: أحمد بن علي، الطبعة الاولي: ٢٠٠٠م، دار الحديث، القاهرة، مصر.
- ابن المبارك: عبد الله بن المبارك المروزي، الزهد والرقائق، ت/حبيب الرحمن الأعظمي، ط/ إحياء المعارف- الهند.
- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الطبعة: الثانية ٢٠١٤ م، ط/ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - مركز دراسات المخطوطات الإسلامية، لندن – إنجلترا.
- ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة – السعودية عام ٢٠٠٤م.
- ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م، دار الرشيد – سوريا.
- ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، لسان الميزان، اعتنى به: عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م، دار البشائر الإسلامية – بيروت
- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، ت/ خليل مأمون شيحا، عمر السلامي، علي بن مسعود، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، دار المعرفة – بيروت.

- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الاولي ١٩٧١م، دار صادر – بيروت.
- ابن شاهين: أبو حفص عمرو بن احمد بن عثمان، الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك، تحقيق/ محمد حسن، الطبعة الاولي سنة ٢٠٠٤م، ط/ دار الكتب العلمية- بيروت
- ابن عجيبة: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد، مصطلحات التصوف، من واقع كتاب التشويق إلى حقائق التصوف، ت/عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الاولي ١٩٩٩م، مطبعة مدبولي- القاهرة.
- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، طبقات الشافعيين، تحقيق: د أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية عام ١٩٩٣م.
- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: على شيري، الطبعة: الأولى، ١٩٨٨ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.
- أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير، سنن أبي داود، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ط/ دار الرسالة العالمية.
- أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط/ مطبعة السعادة – بجوار محافظة مصر عام ١٩٧٤م.
- البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ، دار طوق النجاة.
- البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: د بشار عواد معروف، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م، ط/ دار الغرب الإسلامي – بيروت.

- الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة، سنن الترمذي، ط/ دار الغرب الإسلامي – بيروت سنة ١٩٩٨م.
- الحفني: عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية (أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية)، الطبعة الأولي عام ١٩٩٢م، ط/ دار الرشد
- الخضري: محمد بن عفيفي الباجوري، اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ط/ دار الايمان – بيروت.
- الدَّيْلَمي: أبو منصور شهردار بن شيرويه، مسند الفردوس، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م، جمعية دار البر، دبي - الإمارات العربية المتحدة.
- الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، ميزان الاعتدال، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة: الأولى، ١٩٦٣ م، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.
- الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت/ عمر عبد السلام التدمري، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م، دار العلم للملايين.
- السلمي، أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م،ط/ دار الكتب العلمية – بيروت.
- السندوبي: حسن السندوبي: أبو العباس المرسى ومسجده الجامع في الإسكندرية، الطبعة الأولي ١٩٤٤م، ط/دار الكتب المصرية - القاهرة .
- الشعراني: أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي، الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)، ط/ دار الكتب العلمية.

- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد، الملل والنحل، ط/ مؤسسة الحلبي.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ط/ دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، مصر.
- عفيفي: أبو العلا عفيفي: الملامتية والصوفية واهل الفتوي، ط/ دار أحياء الكتب العربية عيسى البابلي الحلبي وشركاه سنة ١٩٤٥م.
- الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد، المنقذ من الضلال، دار الكتب الحديثة- مصر.
- القرطبي: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية،١٩٦٤ م، ط/دار الكتب المصرية — القاهرة
- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، ط/دار المعارف، القاهرة.
- الكلاباذي: أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب، التعرف لمذهب أهل التصوف، ط/ دار الكتب العلمية — بيروت.
- المحاسبي: الحارث بن أسد، كتاب الوصايا أو النصائح الدينية والنفحات القدسية لنفع جميع البرية، تحقيق عبد القادر احمد عطا، الطبعة الاولي سنة ١٩٨٦م، ط/دار الكتب العلمية- بيروت.
- المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ت/ عبد الحليم محمود، الطبعة الثالثة ط/ دار المعارف.

- المحاسبي: كتاب التوهم، عني بنشره أ.ج. آبري ، وقدم له الدكتور/ أحمد أمين، ط- القاهرة ١٩٣٧م
- مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- المناوي: زين الدين محمد عبد الرؤوف، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، (تحقيق: محمد أديب الجادر، دار صادر- بيروت.

- Ibn Hajar: Shihab al-Din Ahmad ibn Ali, Tahdheeb al-Tahdheeb, T. Khalil Mamoun Shiha, Omar al-Salami, Ali ibn Masoud, first edition, ١٤١٧ AH - ١٩٩٦ AD, Dar al-Maarifa – Beirut.
- Ibn Khalkan: Abu al-Abbas Shams al-Din Ahmed bin Muhammad bin Ibrahim, the deaths of notables and the news of the sons of time, investigated by: Ihsan Abbas, first edition ١٩٧١ AD, Dar Sader - Beirut.
- Ibn Shaheen: Abu Hafs Amr bin Ahmed bin Othman, Encouragement in the Virtues of Deeds and the Reward for That, investigated by Muhammad Hassan, first edition in ٢٠٠٤, i/ Dar Al-Kutub Al-Ilmia - Beirut
- Ibn Agiba: Abu Al-Abbas Ahmed bin Muhammad bin Al-Mahdi bin Al-Hussein bin Muhammad, Terminology of Sufism, from the reality of the book Suspense to the Facts of Sufism, T. / Abdul Hamid Saleh Hamdan, first edition ١٩٩٩ AD, Madbouly Press - Cairo.
- Ibn Kathir: Abu al-Fida Ismail bin Omar bin Kathir, Tabaqat al-Shafi'id, investigated by: Dr. Ahmed Omar Hashem, Dr. Muhammad Zainhom Muhammad Azab, Library of Religious Culture in ١٩٩٣.
- Ibn Kathir: Abu al-Fida Ismail ibn Kathir al-Dimashqi, The Beginning and the End, edited by: Ali Shiri, first edition, ١٩٨٨, House of Revival of Arab Heritage, Beirut – Lebanon.
- Abu Dawood: Suleiman bin Al-Ash'ath bin Ishaq bin Bashir, Sunan Abi Dawood, first edition, ١٤٣٠ AH - ٢٠٠٩ AD, i/ Dar Al-Resala Al-Alamiya.
- Abu Naim: Ahmed bin Abdullah Al-Asbahani, Ornament of the saints and the layers of the righteous, i / Al-Saada Press - next to the governorate of Egypt in ١٩٧٤.

- Al-Bukhari: Muhammad bin Ismail, Sahih Al-Bukhari, investigated by: Muhammad Zuhair bin Nasser, first edition, ١٤٢٢ AH, Dar Tuq Al-Najat.
- Al-Baghdadi, Abu Bakr Ahmed bin Ali bin Thabit Al-Khatib Al-Baghdadi, History of Baghdad, edited by: Dr. Bashar Awad Maarouf, first edition, ٢٠٠٢ AD, i/ Dar Al-Gharb Al-Islami - Beirut.
- Al-Tirmidhi: Muhammad bin Issa bin Sura, Sunan Al-Tirmidhi, i/ Dar Al-Gharb Al-Islami - Beirut in ١٩٩٨.
- Al-Hefni: Abdel Moneim Al-Hefni: The Sufi Encyclopedia (Flags of Sufism, Deniers and Sufi Orders), First Edition in ١٩٩٢, i/ Dar Al-Rushd
- Al-Khudari: Muhammad bin Afifi Al-Bagouri, Completion of Loyalty in the Biography of the Caliphs, i/ Dar Al-Iman - Beirut.
- Al-Dailami: Abu Mansour Shahradar bin Shiroyeh, Musnad Al-Firdaws, First Edition, ١٤٣٩ AH - ٢٠١٨ AD, Dar Al-Ber Society, Dubai - United Arab Emirates.
- Al-Dhahabi: Shams al-Din Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed bin Othman bin Qaymaz, The Balance of Moderation, edited by: Ali Muhammad al-Bajawi, first edition, ١٩٦٣ AD, Dar Al-Marefa for Printing and Publishing, Beirut - Lebanon.
- Al-Dhahabi: Shams al-Din Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed bin Othman bin Qaymaz, History of Islam and the Deaths of Celebrities and Figures, T. Omar Abd al-Salam al-Tadmouri, second edition, ١٤١٣ AH - ١٩٩٣ AD, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut.
- Al-Zarkali: Khair al-Din bin Mahmoud bin Muhammad bin Ali bin Faris, Flags, fifteenth edition ٢٠٠٢ AD, Dar Al-Ilm for millions.

- Al-Salami, Abu Abd al-Rahman al-Salami, Layers of Sufism, edited by: Mustafa Abdel Qader Atta, first edition, ١٩٩٨, i/ Dar al-Kutub al-Ilmiyya – Beirut.
- Al-Sindoubi: Hassan Al-Sindoubi: Abu Al-Abbas Al-Morsi and his Mosque in Alexandria, First Edition ١٩٤٤ AD, i/ Egyptian House of Books - Cairo.
- Al-Shaarani: Abu Al-Mawahib Abdul Wahhab bin Ahmed bin Ali, The Great Classes (The Pollinators of Lights in the Layers of the Good Guys), i/ Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya.
- Shahrastani: Muhammad bin Abdul Karim bin Abi Bakr Ahmed, boredom and bees, i/ Al-Halabi Foundation.
- Al-Tabari: Abu Jaafar Muhammad bin Jarir, Jami' al-Bayan on the Interpretation of the Verse of the Qur'an (Tafsir al-Tabari), edited by: Dr. Abdullah bin Abdul Mohsen Al-Turki, first edition, ١٤٢٢ AH - ٢٠٠١ AD, i/ Dar Hajar for printing, publishing, distribution and advertising - Cairo, Egypt.
- Afifi: Abu Al-Ela Afifi: Al-Malatiyya, Sufism and the People of Fatwa, i/ Dar Al-Hayya Al-Kutub Al-Arabiya Issa Al-Babli Al-Halabi and Co. in ١٩٤٥ AD.
- Al-Ghazali: Abu Hamid Muhammad bin Muhammad, the savior from delusion, Dar Al-Kutub Al-Haditha, Egypt.
- Al-Qurtubi: Abu Abdullah, Muhammad bin Ahmed Al-Ansari, The Collector of the Provisions of the Qur'an, edited by: Ahmed Al-Bardouni and Ibrahim Atfaish, second edition, ١٩٦٤ AD, i/ Egyptian House of Books - Cairo

- Al-Qushayri, Abu al-Qasim Abd al-Karim bin Hawazen al-Qushayri, al-Risala al-Qushayriya, investigated by: Imam Dr. Abdel Halim Mahmoud, Dr. Mahmoud bin Sharif, i/Dar al-Maaref, Cairo.
- Al-Kalabathi: Abu Bakr Muhammad bin Abi Ishaq bin Ibrahim bin Yaqoub, Identification of the Doctrine of the People of Sufism, i/ Dar Al-Kutub Al-Ilmia - Beirut.
- Al-Muhasabi: Al-Harith bin Asad, The Book of Commandments or Religious Advice and Holy Breaths for the Benefit of All Wilderness, investigated by Abdul Qadir Ahmed Atta, first edition in ١٩٨٦, i/ Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya - Beirut.
- Al-Muhasabi: Care for God's Rights, T. Abdel Halim Mahmoud, Third Edition i/ Dar Al-Maaref.
- Accountant: The Book of Illusion, published by A. J. Abri, presented by Dr. Ahmed Amin, i- Cairo ١٩٣٧ AD
- Muslim: Muslim bin Al-Hajjaj Abu Al-Hassan Al-Qushayri, Sahih Muslim, investigated by: Muhammad Fouad Abdel-Baqi, House of Revival of Arab Heritage - Beirut.
- Al-Manawi: Zain al-Din Muhammad Abd al-Raouf, Al-Kawakib Al-Dariyya in the Translations of Sufi Masters, (Investigated by: Muhammad Adeeb Al-Jader, Dar Sader - Beirut.

Sources and references

- Holy Quran.
- Ibn al-Jawzi: Abu al-Faraj Abd al-Rahman ibn Ali ibn Muhammad, Dressing the Devil, first edition, ١٤٢١ AH / ٢٠٠١ CE, Dar al-Fikr for Printing and Publishing, Beirut, Lebanon
- Ibn al-Jawzi: Abu al-Faraj Abd al-Rahman ibn Ali ibn Muhammad, Safwa attribute: edited by: Ahmad ibn Ali, first edition: ٢٠٠٠, Dar al-Hadith, Cairo, Egypt.
- Ibn al-Mubarak: Abdullah bin Al-Mubarak Al-Marwazi, Asceticism and Chips, T. Habib Al-Rahman Al-Adhami, i/ Revival of Knowledge - India.
- Ibn al-Nadim: Abu al-Faraj Muhammad ibn Ishaq, al-Fihrist, edited by: Ayman Fouad Sayyid, second edition ٢٠١٤, i/ Al-Furqan Foundation for Islamic Heritage - Center for Islamic Manuscript Studies, London - England.
- Ibn Taymiyyah: Taqi al-Din Ahmad ibn Abd al-Halim, Majmoo' al-Fatawa, compiled and arranged by: Abd al-Rahman ibn Muhammad ibn Qasim, King Fahd Complex for Printing the Holy Qur'an - Medina - Saudi Arabia in ٢٠٠٤.
- Ibn Hajar: Ahmed bin Ali bin Muhammad bin Ahmed bin Hajar, Approximation of Refinement, edited by: Muhammad Awamah, first edition, ١٩٨٦ AD, Dar Al-Rasheed - Syria.
- Ibn Hajar: Ahmed bin Ali bin Muhammad bin Ahmed bin Hajar, Lisan Al-Mizan, taken care of: Abdel Fattah Abu Ghuddah, first edition, ٢٠٠٢, Dar Al-Bashaer Al-Islamiyya - Beirut

فهرس الموضوعات